التفسير القرآني للظاهرة الحضارية

الدكتور الطيب برغوث

النرويج

إشكالية البحث:

يعتبر المنظور الحضاري أوسع وأشمل وأنضج وحدات تحليل الظواهر الاجتماعية والتاريخية عامة([1])، لأنه يوسع دائرة استقصاء العوامل التي تؤثر في هذه الظواهر الكلية المركبة من ناحية، وينقل الاهتمام من الدوائر الفردية والأسرية والقبلية والوطنية والقومية والعرقية المحدودة، أو الفكرية أو الاقتصادية أو السياسية الجزئية.. إلى ما هو أوسع منها وأشمل من ناحية أخرى([2])، كما أنه يدفع بعملية التحليل لهذه الظواهر المركبة والتفسير لها والاستشراف لصيروراتها التاريخية، نحو الآفاق السننية المرجعية الحاكمة على السلوك الإنساني في نهاية المطاف من ناحية ثالثة([3])، وهي المرحلة الأهم والأرقى في التحليل والمعرفة الإنسانية عامة، أن يصل الجهد العلمي إلى اكتشاف السنن الفاعلة في هذه الظواهر الاجتماعية الكلية المركبة([4])، ويكشف الأسرار الكامنة وراء نجاح بعضها وفشل البعض الآخر منها، ويعمق الرشد الحضاري الإنساني على الصعيد الإنجازي الملموس أو الفعلي.

وللأهمية الكبيرة لهذا المنظور الحضاري في تحليل وتفسير الظواهر الاجتماعية الكلية المركبة خاصة، اعتبره العلماء نقلة معرفية نوعية كبيرة في الوعي البشري، وعدُّوه من أوسع وأشمل الدوائر المعرفية والمنهجية للتحليل والتفسير الموضوعي السنني للظواهر الاجتماعية الكلية المركبة([5])، وهو كذلك فعلا، بالرغم من ضيق مجال الاستفادة منه عمليا، سواء في المجال العلمي الثقافي، أو في مجال التخطيط الاستشرافي الاستراتيجي لسير حركة النهضة الحضارية الشاملة في المجتمع، لأسباب في حاجة إلى دراسة واستكشاف.

فالحضارة في هذا المنظور الحضاري هي القطب الذي تتجه نحوه حركة الصيرورات الاجتماعية بشكل مستمر، كما لاحظ ذلك ابن خلدون منذ زمن بعيد، حينما نبه إلى "أن الحضارة هي غاية العمران"([6])، وهو ما ينسجم مع مقاصد حركة الاستخلاف البشري في الأرض، والسنن الكلية التي تحكم الصيرورات الحضارية لهذه الحركة الاستخلافية، كما سنبين ذلك لاحقا.

([1]) عبد العزيز برغوث، من أساسيات المنهج الحضاري عند مالك بن نبي، كتاب النبراس عدد3، المغرب 2006. ص/48

([2]) أرنولد توينبي، مختصر دراسة للتاريخ، ترجمة فؤاد محمد شبل، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1960. ج7/1

([3]) رشيد رضا، تفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1990. ج116/4.

([4]) محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر 1984. ج97/4

([5]) مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ط5، دار الفكر، دمشق 1986. ص/25

([6]) المقدمة، دار صادر، بيروت 2000. ص/277

ومن هذا المنطلق فإن التغيير الاجتماعي الذي لا يوضع في سياق حضاري، جهد محدود الفعالية والجدوى والنفَس التاريخي، وغالبا ما يكون عرضة للاستيعاب والذوبان في خضم التغييرات الاجتماعية ذات النفّس والأفق الحضاري الأوسع، أو تنحسر وتتهمش فاعليته الاجتماعية في نهاية المطاف([1])، لأنه لا يملك مقومات وشروط المدافعة الثقافية والاجتماعية والحضارية ذات الفعالية الإنجازية الأقوى، والنفس التاريخي الأطول.

وما دامت المرجعيات الفكرية والثقافية عامة، هي التي تؤسس عادة، للطبيعة الاجتماعية أو الحضارية للتغيير، وتحدد نفَسه ومداه التاريخي من ناحية([2]). وما دامت الأديان تأتي في مقدمة هذه المرجعيات الفكرية والثقافية المؤثرة على طبيعة المحتوى الاجتماعي والحضاري للتغيير، وعلى نفَسه ومداه التاريخي من ناحية أخرى([3]). وما دامت المرجعية الإسلامية أكثر هذه المرجعيات جميعا، تعبيرا عن نظرتها الشاملة للحياة، وعن قدرتها على تزويد الإنسان بالرؤية السننية العلمية الأكثر تطابقا مع فطرته وفطرة الوجود الكوني من حوله، بل وتذهب أبعد من ذلك حينما تؤكد على الهيمنة العلمية المرجعية للإسلام على ما عداه من المرجعيات الفكرية والدينية الأخرى([4])، كما يتضح ذلك من قوله تعالى على سبيل المثال: **(وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)** (المائدة:48).

ما دام الأمر كذلك، وما دامت الظاهرة الحضارية هي أبرز ظواهر الحياة البشرية تأثيرا في حياة الإنسان وفي مصيره الأخروي بعد ذلك([5])، فإن الأسئلة المفصلية المطروحة على المرجعية الإسلامية بالخصوص هي: هذه الظاهرة الحضارية التي تطبع حركة الاستخلاف البشري في الأرض على مر التاريخ([6])، كيف نفسرها؟ ما الذي يتحكم في نشأتها ابتداء؟ وما هي المراحل التي تقطعها النهضة الحضارية حتى تتحول إلى ظاهرة حضارية؟ أم أن الأمر يجري عرضا وتتحكم فيه الصدف إلى حد كبير([7])؟ وما الذي يتحكم في الصيرورات التاريخية الصاعدة أو المتقهقرة للظاهرة الحضارية بعد ذلك؟ وما الذي يتحكم في اتجاهاتها المادية المتوحشة أو اتجاهاتها الإنسانية المتوازنة([8])؟ وما الذي يجعل بعضها يمتد طويلا في

([1]) أرنولد توينبي، المرجع السابق 444/1

([2]) سيد قطب، خصائص التصور الإسلامي، ط3، الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية 1983. ص/65

([3]) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق 1986. ص/ 77، 73

([4]) سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة. ج902/2

([5]) صحيح مسلم برقم/2577

([6]) عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، ص/96، 131

([7]) محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية – مصر 1975. ص/263

([8]) عبد الوهاب المسيري، الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، دار الفكر المعاصر، بيروت 2007. ص/11

التاريخ وبعضها الآخر لا يعمَّر طويلا؟ وما الذي يجعل بعضها قابلا للاستدراك وبعضها الآخر يعجز عن ذلك ويطويه التاريخ في تلافيف صفحاته المكانية والزمانية؟

هل هناك قوانين كلية ما تتحكم في هذه الصيرورات التاريخية للظاهرة الحضارية؟ ما هي هذه القوانين الكلية؟ هل في القرآن الكريم رؤية أو نظرية كلية ما في فلسفة التاريخ والحضارة، بإمكانها أن تمنحنا تفسيرا لأبعاد هذه الظاهرة الحضارية والإشكالات التي تطرحها على الإنسان؟ أم أن القرآن مجرد عقيدة دينية روحية لا شأن لها بفلسفة التاريخ والحضارة؟ ما هي معالم هذه النظرية أو الرؤية السننية الكلية الناظمة للصيرورات الحضارية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض في القرآن؟ أين نجد صداها في التراث الثقافي الإسلامي؟ خاصة وأن الإسلام، كما أسلفنا، يطرح نفسه دينا إنسانيا شاملا للبشر كافة ومهيمنا على الفكر الإنساني عامة([1])؟ كما يشير إلى ذلك القرآن في مثل قوله تعالى: **(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)** (سبأ: 28)، وقوله كذلك: **(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)**(الأنبياء: 107).

ما هي وحدة التحليل والتفسير التي يطرحها المنظور القرآني لتحليل وتفسير صيرورات حركة التاريخ الإنساني؟ ما هو موقع الوحدة الحضارية من ذلك المنظور؟

هذه هي الأسئلة الأساسية التي تحاول هذه الورقة البحث فيها، وتقديم مقاربة جوابية عنها.

هدف البحث:

وانطلاقا من أبعاد هذه الإشكالية فإن هذه الورقة تستهدف تحقيق ثلاثة أهداف أساسية، لكل منها أهداف فرعية عديدة:

1. محاولة رسم إطار معرفي لمعالم النظرية الكلية التي تحكم الصيرورات التاريخية للظاهرة الحضارية بشكل مطرد، كما تتجلى في الرؤية القرآنية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض.

2. محاولة رسم معالم خريطة طريق النهضة الحضارية الإسلامية المعاصرة، على ضوء هذه النظرية الكلية في فلسفة التاريخ والحضارة.

3. محاولة تفسير أسباب وعوامل تعثر مسيرة النهضة الحضارية الإسلامية المعاصرة، والتأكيد على ضرورة تعميق وعي أجيال المجتمع والأمة بهذه النظرية الكلية في فلسفة التاريخ والحضارة.

في مفهوم الحضارة والظاهرة الحضارية:

ونشرع الآن في تحديد مفهوم الحضارة والظاهرة الحضارية، التي سنحاول عرض معالم التصور والتفسير القرآني لها؛ نشوءا وامتدادا وتأثيرا، أو ضعفا وتراجعا وتأثرا. فالحضارة كما هو مشاهد تاريخيا وعيانا، تعد أبرز وأقوى الظواهر المطردة التي ترتبط بها طبيعة الصيرورات الاستخلافية في الأرض عبر التاريخ. فما هي الحضارة؟ وما هي حقيقة الظاهرة الحضارية الممتدة في التاريخ البشري؟

([1]) جمال الدين القاسمي، محاسن التأويل، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت 1418. ج156/4

الاتجاهات العامة في تعريف الحضارة:

ومع أن مفهوم الحضارة سيتضح لنا أكثر من خلال عرض معالم الرؤية الإسلامية للظاهرة الحضارية، إلا أنني سأعطي مفهوما كليا مرنا ومنضبطا نسبيا في الوقت نفسه، استخلصه من هذا الكم الهائل من التعاريف التي ما تزال تتوالى، ومن تأملاتي في عرض وتحليل المنظور السنني القرآني للصيرورات الحضارية لحركة التاريخ البشري وتفسيره لها.

ونحن هنا أمام اتجاهات رئيسية عديدة، سنحاول الإشارة إلى أربعة منها على الأقل، لها تأثير واضح على تحديد مفهوم الحضارة والنظرة إلى الظاهرة الحضارية بصفة عامة:

الاتجاه التاريخي الوصفي: وهو اتجاه يهتم بتحديد المفهوم من منطلق التركيز على الحضارة كمنتوج مادي ومعنوي للتغيير الذي يقوم به المجتمع لتلبية حاجاته وتحقيق طموحاته، ومواجهة التحديات التي تعترض تلبية تلك الحاجات وتحقيق تلك الطموحات. فهو اتجاه يرصد الحصائل الثقافية والاجتماعية والعمرانية أو المدنية عامة لعملية التغيير، ومستويات تأثير ذلك على حياة الناس الفكرية والروحية والسلوكية، وعلى فاعلية المجتمع في محيطه وعصره. وهذا عادة ما يكون من وظيفة المؤرخ الراصد لمسيرات التغيرات التي تحدث في المجتمعات الإنسانية.

الاتجاه التاريخي التحليلي: والمستوى الذي يهتم بتحديد المفهوم من منطلق التركيز على الشروط الأساسية التي تمنح المجتمع تلك النتائج المادية والمعنوية، التي تحقق حاجات المجتمع وطموحاته، وتمكنه من مواجهة التحديات التي تعترض طريقه، وتبوئه الموقع المناسب في محيطه وعصره. فهو اتجاه يحلل المؤثرات التي تقف وراء تلك الأحداث التاريخية التي رصدها لنا المؤرخون، ويحاول الاستخلاص ما فيها من نواظم سننية مطردة.

الاتجاه المعياري: والاتجاه الذي يحاول التركيز على الخصائص الفكرية والثقافية والاجتماعية للظاهرة الحضارية، وما تتميز به عن غيرها، وهل هي حضارة مادية أم إنسانية أم جامعة بين البعدين؟ فهو اتجاه يرصد الطبيعة الأخلاقية للحضارة بصفة عامة.

الاتجاه التوفيقي: وهو اتجاه يحاول الجمع بين كل هذه الأبعاد.

والقرآن الذي نحن بصدد استكشاف وعرض رؤيته وتفسيره للظاهرة الحضارية عموما، يركز على الشمولية والتكاملية والتوازن، في وصفه وتحليله وتفسيره للظاهرة الحضارية كمنجز ثقافي واجتماعي وعمراني مركب، وإن كان ينزع كثيرا إلى المنهج التفسيري القيمي الاستشرافي، الذي تهمه النواظم السننية المطردة، التي تقف وراء صياغة تلك الظواهر الحضارية بتلك الصور الإيجابية أو السلبية المنظورة، ويعمل على إبراز تلك النواظم والخصائص، ومحاولة ترسيخها في الوعي الإنساني بشتى الطرق([1]).

وهذا الذي نحرص على إبرازه في هذه الورقة من خلال الحديث عن الحضارة كظاهرة إنسانية تاريخية مركبة مطردة، يهمنا منها الجانب المتصل بكيفية وشروط نشوئها وتطورها واستمرارها من ناحية، وبالخصائص الإنسانية المتوازنة فيها من ناحية أخرى، أي كيف تكون حضارة إنسانية تأخذ فيها الكرامة الإنسانية والقيم الأخلاقية العليا مكانة محورية، لأن

([1]) عماد الدين خليل، التفسير الإسلامي للتاريخ، ط5، دار العلم للملايين، بيروت 1991. ص/ 8، 184

هذين البعدين بالخصوص هما اللذان يؤثران في النهاية على البعد الإنجازي أو الحضارة كمنجز ثقافي واجتماعي وعمراني فعلي.

بناء على هذه الملاحظات فإن التعريف الأولي الذي نستخلصه من كم كبير من التعريفات([1])، هو أن الحضارة هي **حصيلة مستوى التطور أو الترقي الثقافي والاجتماعي والعمراني أو المدني الذي يتحقق لأمة من الأمم أو للإنسانية عامة، في سياق استجابة أجيالها المتعاقبة لحاجات وتحديات حركة المدافعة والمداولة الحضارية من ناحية، ومحاولتهم تجسيد طموحاتهم التي تمليها عليهم رؤيتهم المرجعية الكونية للحياة من ناحية أخرى.**

هذا هو المفهوم الإطاري العام للحضارة، الذي لا تخرج عنه جل التعريفات المطروحة للحضارة، سواء منها التعريفات الشاملة أو الجزئية. فعند تحليل محتوى هذه التعريفات نجده يتمحور باستمرار حول الأبعاد التكوينية السننية في نشوء الحضارات، وحول وصف طبيعة المنجزات الفعلية المحققة، وحول الخصائص والمعايير القيمية للحضارة، وطبيعة الغايات والأهداف والطموحات التي ترسمها أمام أجيال الأمة أو الإنسانية، كما سبق بيان ذلك. ولا يمكن لأي تعريف أن يخلو من هذه الأبعاد مجتمعة، أو من بعضها على الأقل، وهو ما يعطي للتعريف صفة الشمولية حينا أو الجزئية حينا آخر.

فالحضارة كمنجز ثقافي واجتماعي وعمراني مدني، وكمنظومة سنن فاعلة في حركة الإنجاز، وكإطار قيمي معياري يحدد طبيعة واتجاه الأفق الإنساني للتغيير، ويحكم عملية الإنجاز ويؤطرها ويؤثر فيها بشكل أو آخر، هو ما تمحور حوله الاهتمام القرآني بصفة عامة، وإن كان تركيزه على البعدين السنني التكويني، والقيمي المعياري الأخلاقي أكثر بروزا كما أسلفت.

وهذا المنجز الحضاري المركب، الذي يتحكم في الصيرورات التاريخية للمجتمعات البشرية باستمرار، ويدفع ببعضها باتجاه النهضة والقوة والحضور المؤثر في محيطها وفي العالم، ويدفع ببعضها الآخر باتجاه التراجع والضعف والغثائية والتبعية الحضارية، هو ما نعنيه **بالظاهرة الحضارية** في هذا البحث، والتي نحاول تقديم تفسير لها من المنظور السنني القرآني. فالظاهرة الحضارية هي هذا المسار التاريخي الممتد على طول الزمن، والذي تتحرك عليه الجماعات البشرية صعودا وتراجعا، بناء على طبيعة وحجم المنجز الحضاري الذي يقدمه كل منها، للاستجابة لحاجات وتحديات حركة المدافعة والمداولة الحضارية في عصره من ناحية، وسعيا لتحقيق طموحاته المستمدة من رؤيته الكونية المرجعية للحياة من ناحية أخرى. فالظاهرة الحضارية مسار تداولي ممتد تتعاقب عليه حضارات شتى، نسعى في هذا البحث إلى تقديم تفسير قرآني سنني له.

([1]) أنظر على سبيل المثال: حسين مؤنس، الحضارة، ط2، سلسلة عالم المعرفة، العدد 237، الكويت. نصر محمد عارف، الحضارة والثقافة والمدنية دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم، ط2، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية 1994. بهاء الدين الأميري، وسطية الأمة الإسلامية في ضوء الفقه الحضاري، دار الثقافة، الدوحة 1986.

أهمية الوعي بقوانين الظاهرة الحضارية:

إن الخبرة التاريخية الإنسانية تؤكد باستمرار، بأن الظاهرة الحضارية تحتل مكانة محورية ممتدة في التاريخ الإنساني، حيث يرتبط بها مصير المجتمعات الإنسانية في المرحلة الدنيوية من دورتها الوجودية الكبرى، ويتوقف مصيرها في بقية المراحل الأخرى التالية من دورتها الوجودية الكبرى عليها كذلك. فالمجتمعات البشرية تستجيب لحاجات حياتها المادية والمعنوية، وتمتلك من القدرات التي تواجه بها التحديات المحيطة بها، وتحقق بها طموحاتها في الحياة، من خلال مستوى التطور الحضاري الذي تحققه في عصرها.

فالكلمة الأولى والأخير في تقرير مصائر المجتمعات البشرية هو للمستويات الحضارية التي تحققها، فإذا كانت هذه المستويات شاملة ومتطورة وفعالة، تحركت بها على خط الصعود والنفوذ، وتحقق لها الأمن الحضاري المطلوب، وامتد تأثيرها وحضورها في التاريخ بحسب ذلك. أما إذا كانت هذه المستويات الحضارية متدنية، فإنها حتما ستتحرك بها أوضاعها على خط التراجع والضعف والغثائية الحضارية، وسيتعرض أمنها الحضاري إلى أخطار الغثائية والتبعية الحضارية المنهكة وربما المهلكة.

هذه هي الخلاصة السننية الثابتة التي تمدنا بها الخبرة التاريخية البشرية في هذا المجال "**أن المستويات الحضارية هي التي تصنع مصائر المجتمعات والأمم على مر التاريخ. وأن أي تفكير في مشكلة الإنسان ومصيره، ينبغي أن ينصب باستمرار حول مشكلة حضارته. فالحضارة هي القطب الذي تتجه نحوه المسيرة البشرية عبر التاريخ** "، كما يؤكد ذلك مالك بن نبي في مقولة في غاية الأهمية، لخص فيها مكانة الوعي الحضاري في الحياة البشرية: " إن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته، ما لم يرتفع بفكرته إلى مستوى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها"([1]).

ومن منطلق الوعي أو على الأقل الشعور القوي بهذه الحقيقة، تحرك الفكر الإنساني ليولي عناية كبيرة لهذه القضية الإنسانية المحورية، وإن لم يرق إلى مستويات النضج السنني الشمولي التكاملي المطلوب، إلا مع الوعي الذي بثته الرسالات السماوية عبر التاريخ([2])، كما سنرى نموذجا عن ذلك لاحقا، ومع بعض الأفكار التي جاءت في سياق بناء علوم فلسفة التاريخ والحضارة بالخصوص([3])، مع ابن خلدون وهيجل وشبنقلر وتوينبي وبن نبي وغيرهم، الذين حاولوا تقديم أطروحات أو نظريات فكرية لتفسير حركة التاريخ والحضارة، ومحاولة إبراز الأهمية الكبيرة لمثل هذا الوعي السنني في حياة الإنسان، ومع محاولات العلوم الحديثة عامة؛ كونية كانت أم إنسانية، التوغل في استكشاف سنن الحياة في كل المجالات، والتي غلب عليها الاهتمام الجزئي التخصصي، ولم تتمكن بعد من تحقيق النظرة الشمولية التكاملية المطلوبة،

([1]) مالك بن نبي، شروط النهضة، ط4، دار الفكر، دمشق 1987. ص/21

([2]) فاطمة محمد عبد العليم، أثر الدين في النظم القانونية، دكتوراة مخطوطة، جامعة القاهرة 2001. ص/25

([3]) أنظر: التاريخ وكيف يفسرون: من كونفشيوس إلى توينبي، آلبان.ج.ويدجري، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

التي تربط بين هذه المفردات السننية الجزئية اللامحودة، والوصول عبرها إلى بناء الشبكة السننية الكلية المؤثرة في حركة الاستخلاف البشري في الأرض.

وقد شعر كثير من المفكرين والعلماء في شتى حقول المعرفة العلمية والإنسانية، بالحاجة الحيوية الملحة إلى استخلاص رؤية أو نظرية كلية لتفسير وتأطير حركة الحياة، واعتبروا ذلك خللا بنيويا خطيرا تعاني منه البشرية مع الحضارة المادية المعاصرة بالخصوص، التي حطمت النظرة المعرفية الشمولية القديمة، التي كانت المادة جزءا منها وليس كل شيء فيها، ولم تمنح الإنسان المعاصر البدائل المؤثرة، التي تعوض ما كانت توفره له هذه المعرفة الشمولية القديمة، التي كان ينفتح عبرها على آفاق الكون من حوله([1])، على ما كان يشوب تلك المعرفة من خرافة وقصور ومناقضة لمنطق السنن أحيانا كثيرة، ومع ذلك فإنها كانت تشكل مثابات نفسية يركن إليها الإنسان في محاولة فهم ما حوله، واستجلاب الأمن والاستقرار المطلوب. فلما تم ضرب هذه المثابات التقليدية دخل الإنسان في مرحلة التيه الفكري والنفسي والروحي، وهو ما كانت له انعكاسات عميقة على الحياة البشرية، جعلت أحد علماء النفس الكبار يقول بأن " إنسان الغابات البدائي أكثر كمالا بما لا يقاس من الغالبية العظمى من المتمدنين "([2]) !

فالبشرية وبالرغم مما تبذله من جهود كبيرة، وبما حققته من مكاسب هائلة لمعرفة الإنسان والطبيعة والكون، فإن فراغا نفسيا وكونيا مخيفا يحيط بالإنسان المعاصر، كما يقول الكسيس كاريل "وفى الحق لقد بذل الجنس البشرى مجهوداً جباراً لكى يعرف نفسه، ولكن بالرغم من أننا نملك كنزاً من الملاحظة التي كدسها العلماء والفلاسفة والشعراء وكبار العلماء الروحانيين في جميع الأزمان، فإننا استطعنا أن نفهم جوانب معينة فقط من أنفسننا.. إننا لا نفهم الإنسان ككل.. إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة. وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا. فكل واحد منا مكون من موكب من الأشباح تسير في وسطها حقيقة مجهولة"!!

ويضيف " وواقع الأمر أن جهلنا مطبق. فأغلب الأسئلة التى يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشرى تظل بلا جواب. لأن هناك مناطق غير محدودة فى دنيانا الباطنية. ما زالت غير معروفة... وهناك أسئلة أخرى لا عداد لها، يمكن أن تلقى فى موضوعات تعتبر فى غاية الأهمية بالنسبة لنا.. ولكنها ستظل جميعاً بلا جواب.. فمن الواضح أن جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الإنسان، غير كاف، وأن معرفتنا بأنفسنا ما زالت بدائية فى الغالب... "([3]).

ويصل بعد تحليلات عميقة إلى نتيجة مهمة جدا وهي أن " الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب لأنها لا تلائمنا. فقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقة، إذ أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية وشهوات الناس وأوهامهم ونظرياتهم ورغباتهم. وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا.."([4]).

([1]) بيير داكو، الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث، ترجمة وجيه أسعد، مؤسسة الرسالة، بيروت /736

([2]) نفسه/21

([3]) الإنسان ذلك المجهول، ترجمة شفيق أسعد فريد، نشر مكتبة المعارف بيروت/ 13- 18

([4]) نفسه/38

وهذا ما نجد صداه في العلوم الإنسانية التي وجدت أصلا لتساعد الإنسان على تحقيق الوعي المطلوب بذاته وبواقعه وبالكون من حوله، وموقعه في هذا الكون، فإذا بها تتيه وراء الفرضيات الجزئية المتناقضة، وتعجز تماما عن استخلاص رؤية أو نظرية كلية عن الإنسان: من هو؟ وما علاقاته بالكون؟ وما موقعه منه؟ وما القدرات التي يمتلكها؟ وأصبح هذه العلوم تعاني من معضلة النظرية الكلية في العلوم الإنسانية عامة بمختلف فروعها واتجاهاتها، حيث تعاني هذه العلوم المؤسَّسة على الوضعية العلمية المعاصرة، من أزمة شديدة، سواء على مستوى الوصف أو التحليل* أو التفسير أو التوقع والاستشراف، أو الإنجاز الفعلي للتغيير، بسبب غياب **نظرية كلية للإنسان**، كما يؤكد ذلك الكثير من علماء الاجتماع على سبيل المثال، ويعتبرون الاختلالات أو الانحرافات التي تعاني منها النظريات الجزئية الصحيحة، بل وحتى النظريات الكلية المتاحة، ما هو إلا انعكاس لذلك الخلل البنيوي الكبير، ([1]) المتمثل في قصور النظرة إلى الإنسان والكون والحياة والخالق، أي افتقاد المنظور الكوني السنني الشمولي التكاملي الكلي، المتناغم مع فطرة الكون والإنسان والحياة.

فاضطراب الوعي بشأن الرؤية أو النظرية السننية الشمولية التكاملية الكلية للإنسان وللكون والحياة، انعكس على النظرة إلى تفسير الظاهرة الحضارية، وإلى خصائص ومقومات الحضارة، وإلى شروط التغيير والبناء الحضاري، فطغت النزعة المادية التكاثرية المتوحشة على كل شيء، وهيمن منطق الصراع على الحياة، وانكمشت المعاني الروحية والأخلاقية وهو ما لا يمكن تجاوزه ومواجهة تبعاته الخطيرة، إلا برؤية أو نظرية سننية شمولية تكاملية منسجمة مع فطرة الإنسان وفطرة الكون من حوله.

إن الرؤية الكونية المتوازنة ضرورية للحياة، وهو ما يجب على النخبة البشرية أن تستثمر فيه أعز ما لديها من عبقريات وإمكانات، للخروج من هذه الوضعية الخطيرة. " فالقضية كلها قضية نظرة. ونحن الآن بالذات نواجه مشكلة لأنه ليس لدينا نظرة مقبولة. فلا النظرة القديمة تؤدي دورها على الوجه السليم، ولا نحن تعلمنا النظرة الجديدة "([2]) كما يؤكد ذلك كثير من العلماء والمفكرين والباحثين الذين تعمقوا في دراسة الحضارة الإنسانية المعاصرة بالخصوص، وانفتحوا على آفاق مهمة في فلسفة العلوم والتاريخ والحضارة بصفة عامة، ووجدوا بأن الرؤية الكونية التي يملكها المجتمع عن الله والكون والحياة والإنسان، هي التي تتحكم إلى حد بعيد في صناعة الظاهرة الحضارية، وتمنحها هويتها وخصوصيتها

---

* لأن النظرة الشيئية التجزيئية للظواهر الإنسانية المختلفة، تحرم عملية الوصف من استيفاء معطيات الوصف الشامل والمتكامل لكل أبعاد الظاهرة والعوامل المؤثرة فيها، حيث تستبعد عوامل ومؤثرات عدة ذات صلة بسوسيولوجيا الغيب والإيمان وتجلياته المختلفة عامة، وهو ما ينعكس بعد ذلك سلبا على عملية التحليل، ومن ثم على عمليات التفسير والتنبأ والاستشراف والإنجاز الفعلي للتغيير أو الإصلاح أو التجديد في النفس والمجتمع.

([1]) مناهج العلوم الاجتماعية، مادلين غراويتز، الكتاب الثاني، ترجمة سام عمار، المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف، دمشق 1993. ص/96

([2]) العلم في منظوره الجديد، روبرت م. أغروس، وجورج ن. ستانسيو، ترجمة كمال خلايلي، سلسلة كتاب عالم المعرفة رقم/134. ص/15

الذاتية الإنسانية أو اللاإنسانية في نهاية المطاف([1])، والحضارة المعاصرة قوّضت فيها النظرة الشمولية التكاملية التي كان يوفرها الإيمان للإنسان، ولم يستطع العلم الحديث وحده أن يمنح الإنسان رؤية كونية متماسكة، فأصبح عرضة لمخاطر الفراغ الروحي، والاضطراب النفسي، والصراع الاجتماعي([2])، أي عرضة لتقلب المزاج والتيه وعدم الاستقرار، كما وصف ذلك القرآن حالةَ فاقدِ الجاذبية الإيمانية وكيف يحيط به التيه من كل جانب، وتتقاذفه العوارض من كل اتجاه([3]) في مثل قوله تعالى: (**وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ**) (الحج:31).

المنظور السنني القرآني للظاهرة الحضارية:

ننطلق الآن في عرض معالم الرؤية القرآنية أو الإسلامية عامة، عن الظاهرة الحضارية، وكيف تفسر كل تحولاتها الصاعدة أو المتقهقرة، متخلصين من تلك النظرة التقليدية التجزيئية غير العلمية للدين، التي تسربت إلينا من صراعات الحضارة الغربية المعاصرة مع الدين، ومعتبرين بأن الدين منظومة سننية كونية ثالثة لا يمكن الاستغناء عنها وعن خدماتها للإنسانية بأي حال من الأحوال([4]). فالدين في ضوء فلسفة التاريخ والحضارة يبدو " ظاهرة كونية تحكم فكر الإنسان وحضارته، كما تحكم الجاذبيةُ المادةَ، وتتحكم في تطورها. والدين على هذا يبدو وكأنه مطبوع في النظام الكوني، قانونًا خاصًا بالفكر، الذي يطوف في مدارات مختلفة، من الإسلام الموحِّد إلى أحط الوثنيات البدائية "([5]) كما يقول مالك بن نبي بعد أن توغل في دراسة الظاهرة الدينية في التاريخ الحضاري الإنساني.

السلطة السننية للدين: فالسلطة السننية للدين، ليست كما تعرضها بعض الدراسات الأنثربولوجية والاجتماعية والتاريخية التجزيئية الحديثة للدين، سلطة جزئية أو معنوية باهتة أو طقوسية تاريخية[6]، بل هي سلطة فكرية وروحية ونفسية واجتماعية قوية جدا، وراسخة جدا في النظام الكوني عامة([7])، ناهيك عن محورية دورها في حياة الإنسان([8])، كما تؤكد ذلك الدراسات الأنثروبولوجية العلمية المعمقة، والدراسات العلمية المندرجة في سياق فلسفة التاريخ والحضارة بالخصوص، التي تدلل على أن الدين ملكة أساسية من ملكات الطبيعة البشرية كما يقول توينبي([9])، وأنه لا يمكن الاستغناء عنه ناهيك عن القضاء عليه ! كما يذكر ذلك ديورانت وهو الذي غاص في سبر أعماق الحضارة الإنسانية في موسوعته

([1]) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، مرجع سابق/56 وما بعدها

([2])ولترستيس، الدين والعقل الحديث، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي، القاهرة 1998. ص/ 104، 118

([3]) جمال الدين القاسمي، محاسن التأويل 244/7

([4]) الطيب برغوث، المنهج النبوية في حماية الدعوة ومنجزاتها في مرحلة بناء الدولة والمجتمع، أطروحة دكتوراه مخطوطة بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة – الجزائر. ص/ 201

([5]) الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط4، دار الفكر، دمشق 1987. ص/300

([6]) فرج الله عبد الباري، العقيدة الدينية نشأتها وتطورها، دار الآفاق العربية، القاهرة 2006. ص/59 وما بعدها.

([7]) في ظلال القرآن2230/4

([8]) هنري برجسون، منبعا الأخلاق والدين، ترجمة سامي الدروبي، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة 1971. ص/113

([9]) مختصر دراسة للتاريخ 179/3

الحضارية الشهيرة، حيث كتب يقول: "ثمة درس من دروس التاريخ يتمثل في أن الدين متعدد الأرواح، دائب النشور والبعث، فما أكثر المرات التي تصور فيها الناس موت الإله والدين، ثم بعثا وتجددا"([1])!

إن ما هو فطري أو سنني يعد مكونا جوهريا من مكونات الطبيعة الكونية والإنسانية، لذلك لا يتغير ولا يُستأصل بل تتجدد فاعليته في حياة الناس دوما، ويفرض وجوده على الحياة باستمرار، حتى وإن نسيه الناس أحيانا، وتهمَّش دوره في حياتهم، وهو ما عبر عنه ديورنت هنا بشكل رمزي "بتعدد الأرواح"! والدين من هذه الملكات الفطرية المودعة في الطبيعة البشرية، والتي جعلت محرري (معجم لاروس للقرن العشرين) يقولون بأن: " الغريزة الدينية مشتركة بين الأجناس البشرية، حتى أشدها همجية وأقربها إلى الحياة البدائية.. وأن الاهتمام بالمعنى الإلهي وبما فوق الطبيعة، هو إحدى النزعات العالمية الخالدة "([2]). كما جعلت أحد المتضلعين في تاريخ الأديان يصل إلى خلاصة مهمة مفادها: **أن تكون بشرا يعني يعني أن تكون متدينا، ولا يمكن أن تكون بشرا بدون دين**([3]) ! وهو أمر ينسجم تماما مع الرؤية القرآنية للدين ولوظيفته في الحياة، وأنه مكون أصيل من مكونات الفطرة الإنسانية، وناظم ضروري من نواظم الحضارة الإنسانية، لا غنى عنه([4])، كما يشير إلى ذلك القرآن في مثل قوله تعالى: (**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**) (الروم: 30).

وعبر علماؤنا عن حقيقة كون بشرية الإنسان وإنسانيته مرتبطة بحظه من الدين بكل وضوح وعمق حينما قال الأصفهاني على سبيل المثال: "فالإنسان يحصل له من الإنسانية بقدر ما يحصل له من العبادة التي من أجلها خلق، فمن قام بالعبادة حق القيام فقد استكمل الإنسانية، ومن رفضها فقد انسلخ من الإنسانية"([5]). وقال ابن تيمية" كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله تعالى، وكلما ازداد العبد تحقيقا للعبودية ازداد كماله وعلت درجته"([6]).

من هذا اليقين العلمي بالدور المحوري للدين في الكون عامة والحياة الإنسانية خاصة، والإيمان بكون الإسلام هو الخلاصة السننية المحكمة لحركة الرسالات السماوية التي تتالت في الأرض عبر التاريخ([7])، نشرع في عرض معالم الرؤية القرآنية أو الإسلامية عامة في تفسير الظاهرة الحضارية، كمحرك رئيس للصيرورات الاستخلافية البشرية في الأرض.

([1]) ويل ديورنت، دروس التاريخ، ترجمة علي شلش، دار الجميل، القاهرة 1999. ص/100

([2]) دراز، الدين/84

([3]) ميرسيا إلياده، البحث عن التاريخ والمعنى في الدين، ترجمة سعود المولى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2007. ص/40

([4]) الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير 92/21

([5])الراغب الاصفهاني، تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت 1983. ص/79

([6]) عبد الحليم بن تيمية، مجموع الفتاوى، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت 2000. ج97/10

([7]) تفسير المنار 351/4

منطلق القرآن في تفسير الظاهرة الحضارية:

نركز هنا على أربع منطلقات مهمة جدا([1])، في الأساس المعرفي والعقدي للرؤية السننية القرآنية للظاهرة الحضارية، وهي:

* النظام الكوني وسلطان السنن عليه.
* الحياة البشرية وسلطان السنن عليها.
* موضوعية أو حيادية سلطان السنن.
* شمولية وتكاملية سلطان السنن.

النظام الكوني وسلطان السنن عليه: وفي سياق إبراز معالم هذه الرؤية القرآنية المتميزة للظاهرة الحضارية، يلحظ الدارس للقرآن من المنظور السنني الشمولي التكاملي، بأن القرآن يتحرك لتحليل وتفسير الظاهرة الحضارية من منطلق علمي وعقدي أساس، ألا وهو أن الله تعالى أقام نظام الكون كله على أنظمة سننية كونية مطردة لا تتغير ولا تتبدل([2])، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: (**وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً**) (الفرقان: 2).

فكل شيء في الوجود الكوني مقدر ومبرمج بدقة متناهية، ومهيأ لأداء وظائفه الحيوية الذاتية والبينية أو التفاعلية، وفق أنظمة سننية مطردة([3])، لا اختلال فيها، ولا اضطراب في أدائها لوظائفها الكونية بانتظام([4])، كما يشير القرآن إلى إلى ذلك في مثل قوله تعالى: (**الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ. ثمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ**) (الملك: 3، 4).

فخضوع الكون كله إلى أنظمة سننية محكمة مطردة([5])، هي القاعدة العقدية والمعرفية الأساس التي تقوم عليها رؤية الإسلام للكون والحياة، ويتأسس عليها تحليل القرآن وتفسيره للصيرورات الحضارية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض. وهذه حقيقة مدركة بالعيان، ومؤكدة بالخبرة التاريخية المستفيضة، التي لا يمكن أن ينكرها إلا منقوص المدارك والخبرات. ويشكل هذا المنطلق التأسيسي نقلة نوعية هائلة في الوعي البشري، وصفها أحد الباحثين بأنها نقلة ضوئية([6])،

([1]) توسع الباحث في شرح هذه المنطلقات في أطروحته للدكتوراة عن " المنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها في مرحلة بناء الدولة والمجتمع " (مخطوطة بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر. ص/ 164).

([2]) محمد بن علي الشوكاني، فتح القدير، دار الفكر، بيروت. ج 61/4

([3]) محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان، دار الفكر، بيروت 1995. ج8/6.

([4]) أبو السعود محمد بن محمد، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت. ج9/ 4

([5]) ولترستيس، الدين والعقل الحديث، مرجع سابق/ 93

ضوئية([1])، وهي كذلك. فالفكر البشري ما يزال بعيدا عن النظرة الكونية السننية الشمولية التكاملية التي يطرحها القرآن للحياة، كما سيتضح لنا من خلال عرض معالم الرؤية القرآنية للظاهرة الحضارية([2]).

الحياة البشرية وسلطان السنن عليها:

وكما أن الكون كله في المنظور السنني القرآني، تنتظمه شبكة سننية محكمة مطردة، فإن سلطان هذه السنن يسري على الحياة البشرية كذلك، باعتبارها جزءا من النظام الكوني العام. فالله تعالى شاء أن تكون الحياة البشرية محكومة بسنن مطردة تنتظم حركتها باستمرار، كبقية المنظومات الكونية الأخرى، التي تسير كلها وفق شبكة أنظمة سننية محكمة ومطردة، كما يشير إلى ذلك القرآن في مثل قوله تعالى: **(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)** (القمر: 19) أي وفق نظام محكم منضبط استوفى تمام الحكمة([3]). وقوله كذلك: **(وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً)** (الفرقان: 2). أي " قدر حجمه وشكله، وقدر وظيفته وعمله، وقدر زمانه ومكانه، وقدر تناسقه مع غيره من أفراد هذا الوجود الكبير "([4]).

فالله سبحانه وتعالى قضت حكمته البالغة أن تنتظم حركة الكون والحياة والإنسان وفق أنظمة سننية كونية موضوعية محكمة([5])، وأن يجعل لذلك سلطانا على حياة البشر، به يقيمون خلافتهم في الأرض، وبه يتمايزون ويمتازون بعضهم عن بعض، وبه يُبتلون في الحياة الدنيا، وعلى ضوء طبيعة حصائل جهدهم الدنيوي يجازون في الآخرة. فمن تطابقت حركته الاستخلافية مع سلطان هذه السنن، مضى على طريق الخيرية والعبودية والعالمية والإنسانية والكونية، ومن تصادمت حركته الاستخلافية مع هذه السنن، اضطرب أمره، وتنافرت قواه، وناله نصيبه من الضنكية والغثائية والتبعية الحضارية في دنياه، وساء مصيره في أخراه([6]).

موضوعية أو حيادية سلطان السنن:

وبالإضافة إلى ما سبق، فإن سلطان السنن النافذ في النظام الكوني وفي حركة الاستخلاف البشري في الأرض، بشكل مطرد، في المنظور السنني القرآني، سلطان موضوعي تسري آثاره على كل شيء في الوجود وفي حركة الحياة البشرية، بموازين منضبطة لا محاباة فيها لأحد من الخلق مهما كان، بل الكل سواسية أمام سلطان السنن الإلهية، فهي مبذولة ومسخرة للجميع وفق موازين ثابتة، من عرفها وانضبطت حركته الاستخلافية بها، إنقادت له، ومنحته خدماتها بحسب ذلك، ونال ما يريد وإن كان ملحدا أو وثنيا، ومن جهلها أو تجاهلها وتنكبها في حركته الاستخلافية، استعصت عليه، وحرمته من خدماتها، وجرَّعته عواقب اصطدامه بها، وقذفت به في دوامات الاستضعاف والغثائية والتبعية الحضارية

([1]) محمد يتيم، في نظرية الإصلاح الثقافي، طوب بريس، الرباط – المغرب 2010. ص/251

([2]) شرحت هذه الرؤية في دراسات سابقة عديدة منها: مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية. والفعالية الحضارية والثقافة السننية. المنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها في مرحلة بناء الدولة والمجتمع.. وغيرها.

([3]) جمال الدين القاسمي، محاسن التأويل، دار الكتب العلمية، بيروت 1418. ج46/9

([4]) سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة. ج5 /2548.

([5]) الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير 392/7

([6]) شهاب الدين الألوسي، محاسن التأويل، دار إحياء التراث العربي، بيروت. ج213/30

المنهكة والمهلكة، وإن كان صديقا أو نبيا([1]). كما جاء ذلك في قوله تعالى على سبيل المثال: (**كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُوراً**) (الإسراء: 20).

ولهذا عندما ذهل المسلمون أمام هزيمتهم في معركة أحد، وتساءلوا كيف يحصل هذا وهم مؤمنون يدافعون عن الإسلام ! جاءهم الجواب الواضح الصريح في القرآن: (**أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**) (آل عمران: 165). لقد انطبقت عليهم سنة الهزيمة فكان لا بد أن ينهزموا حتى يصححوا وعيهم بسلطان السنن على أقدار البشر، ويجددوا فهمهم لموضوعيتها وحياديتها، ويوطنوا حركتهم الاستخلافية على ضوئها([2]).

شمولية وتكاملية سلطان السنن:

كما أن سلطان السنن على النظام الكوني في المنظور السنني القرآني، يتميز بالشمولية والتكاملية، أي أن هذه السنن التي تحكم حركة الكون وحركة الخلافة البشرية في الأرض، ليست موجودة في منظومة سننية كونية واحدة، يمكن الاقتصار عليها فهما واستثمارا، لتحقيق الفعالية والكفاءة الاستخلافية المطلوبة، بل هي موزعة على أربع منظومات سننية كونية كلية كبرى، كما سنرى ذلك لاحقا، لا بد من أن يؤسس الإنسان وعيه بها، ويوطن علاقته بها، وأن يستثمرها جميعا في تلبية حاجات حياته، ومواجهة التحديات التي تعترضها. فـ " **الدورة الإنجازية** " لأي فعل إنساني؛ صغيرا كان أم كبيرا، تجد نفسها باستمرار، في حاجة إلى معطيات سننية من كل هذه المنظومات السننية الكونية الكلية الأربعة، حتى تستكمل هذه الدورة شروطها المطلوبة، ويأتي الفعل الناتج عنها أصيلا وفعلا وتكامليا ومطردا([3]). وبغير هذا الاستثمار الشمولي التكاملي لمعطيات هذه المنظومات السننية الكونية الأربعة، يأتي الفعل الإنساني منقوص الأصالة أو الفعالية أو التكاملية أو القدرة الاطرادية، وهو ما يخل في النهاية بالمضمون الروحي والأخلاقي والاجتماعي للخلافة الإنسانية في الأرض، وتترتب عليه عواقب وخيمة في حياة الإنسان الدنيوية والأخروية.

هذه هي المنطلقات الأساسية التي تنطلق منها الرؤية السننية القرآنية في تحليل الظاهرة الحضارية، وتفسيرها، واستشراف آفاق صيروراتها التاريخية.

دوائر تشكُّل معالم المنظور السنني القرآني للحياة الإنسانية:

والسؤال الحيوي الهام الذي يواجهنا بعد تحديد هذه المنطلقات، هو: **ما هي معالم هذا النظام السنني الكوني الذي يحكم حركة الوجود البشري بصفة خاصة، ويؤثر على الصيروات الحضارية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض؛ تحليلا وتفسيرا واستشرافا؟ أين تتجلى معالم هذا المنظور السنني الشمولي التكاملي في القرآن الكريم والسنة والسيرة النبوية بالخصوص؟**

([1]) تفسير المنار 116/4

([2]) في ظلال القرآن 478/1

([3]) أنظر التفاصيل في دراساتنا عن: سلطة المنهج في الحركة النبوية، ومدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية، وإشكالية المنهج في استثمار السنة النبوية، والفعالية الحضارية والثقافة السننية..وغيرها.

والنظرة الاستقرائية للقرآن الكريم والسنة والسيرة النبوية خاصة، ولتراث الخبرة الثقافية للإمة عامة، تبين لنا بأن المنظور السنني الكوني الشمولي التكاملي المتوازن، الذي نتصور بأن الإسلام يتضمنه، أو على الأقل يتسع له، ويقدمه لتفسير وفهم وتدبير أو إدارة الصيرورات الحضارية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، واستشراف آفاقها المستقبلية، يتمحور حول أربع منظومات سننية كلية كبرى هي([1]):

- ✓ منظومة سنن المقاصد الكلية للحياة البشرية.
- ✓ منظومة السنن الكلية الناظمة لحركة الاستخلاف البشري في الأرض.
- ✓ منظومة السنن الكلية المتعلقة بالتسخير الإنجازي.
- ✓ ودائرة المنظومات السننية الكلية المتعلقة بالوقاية الحضارية.

ونظرا لضيق مجال التوسع في شرح هذه المنظومات، في هذه الورقة، فسنكتفي بعرض البنى الهيكلية لكل منظومة، ونخلص في النهاية إلى صيغة النظرية أو الرؤية السننية الكلية التي نعتقد بأن القرآن يطرحها أو يتسع لها، لتحليل الظاهرة الحضارية وتفسيرها واستشراف آفاق صيروراتها المستقبلية.

ونشير بين يدي الخريطة الهيكلية لهذا المنظور، إلى أن المهمة الأساسية للأديان بصفة عامة، والإسلام بصفة خاصة، كخاتم لهذه الأديان السماوية، هي بناء هذا المنظور السنني الكوني الكلي حول الوجود الكوني والبشري الذي تتحرك في إطاره حركة الحياة البشرية على الأرض بعد ذلك، بكل عبقريتها وعنفوانها الاجتهادي الإبداعي التجديدي المطاق. وهذه الإمكانية ليست متاحة للعقل البشري مهما اتسعت وتعمقت وتكاملت خبراته المعرفية، لأنه يحتاج إلى علم محيط بالكون والحياة والإنسان، وهو ما لا يملكه ولا يقوى عليه إلا خالق الكون والحياة والإنسان فعلا.

منظومة سنن المقاصد الكلية للحياة البشرية

وهي الدائرة المركزية الأم التي تحدد المضغة المفصلية للمنظور السنني القرآني الكوني، وتتحكم في بقية دوائره المركزية الأخرى التالية، وتؤثر فيها تأثيرا عميقا مطردا بعد ذلك وتشكل القطب الذي تتجه نحوه الحياة البشرية باستمرار. وتتكون هذه الدائرة المضغية الأم من خمس كليات أو منظومات محورية من الفقه السنني المتكامل، وهي:

منظومة فقه التوحيد([2]): الذي يدور حوله ويتحرك نحوه كل شيء في الوجود. قال تعالى: **(ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)** (الأنعام: 102). وقال سبحانه: **(وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)** (القصص: 88).

ومنظومة فقه الخلافة([3]): التي تشكل الوظيفة الوجودية للإنسان في الحياة. كما قال تعالى: **(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً)** (البقرة: 30). وقال كذلك: **(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي**

([1]) استوعب الباحث هذه المنظومات الكلية في دراسته: مقدمة في المنظور السنني لدراسة القرآن والسنة والسيرة (مخطوط).

([2]) عبد الحليم بن تيمية، مجموع الفتاوى 58/1، 72

([3])القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 263/1، سيد قطب، مقومات التصور الإسلامي، ط4، دار الشروق، القاهرة 1993. ص/367

الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) (البقرة: 30).

ومنظومة فقه العبودية([1]): التي هي روح الخلافة البشرية في الأرض وقوامها، وساحة تجلي مقتضيات التوحيد، ومنهج ترقي الإنسان في مدارج استكمال إنسانيته كما أسلفنا. قال تعالى: **(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)** (الذاريات: 56). وقوله كذلك: **(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)** (الأنبياء:25).

ومنظومة فقه العمران الحضاري([2]): الذي هو مجال التجلي الفعلي للمقتضيات الفكرية والروحية والسلوكية والاجتماعية للعبودية من جهة، وساحة لإنجاز مهمة الخلافة في الأرض من جهة أخرى. قال تعالى: **(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)** (النور: 55). وقال سبحانه: **(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ)** (الأنعام: 165).

ومنظومة فقه المصير الأخروي للإنسان([3]): الذي تتحرك نحوه الحياة البشرية كلها، وتتغيَّاه في نهاية الدورة الوجودية الكبرى للإنسان. كما قال تعالى: **(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)** (القصص: 77). فالإسلام يجعل موازين المصير الأخروي للإنسان محركا مركزيا للنشاط الدنيوي برمته، كما في الحديث النبوي: **(من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له)** ([4]).

هذه هي المقاصد الكلية للحياة في المنظور السنني للقرآن الكريم، وهي تشكل المركز المحوري الرئيس لاهتمامات القرآن والسنة والسيرة، حيث يلاحظ الدارس لها جميعا، أن كل ما ورد في القرآن من فقه عقدي أو عبادي أو تشريعي أو أخلاقي، أو تاريخي، أو معرفي عام، وكل ما ورد في السنة من توسيع لدائرة البيان والتفهيم والتفريع لذلك الفقه الكلي،

([1]) عبد الحليم بن تيمية، العبودية، تحقيق علي حسن عبد الحميد، دار الأصالة، الإسماعيلية، ص 1999. ص/19، الراغب الاصفهاني، تفصيل النشأتين وتحصيل الساعدتين، /79، عبد المجيد النجار، خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، ط2، المعهد العالمي للفكر الإسلامي 1993. ص/61

([2]) أنظر: ابن خلدون، المقدمة، الدهلوي حجة الله البالغة، عماد الدين خليل، في الفقه الحضاري، عبد المجيد النجار، فقه التحضر، محمد عمارة معالم المشروع الحضاري الإسلامي،..

([3]) تفسير الطبري 212/10، صديق خان، فتح البيان في مقاصد القرآن 306/3، عمر سليمان الأشقر، الجنة والنار، ط7، دار النفائس، الأردن 1998. ص/61

([4]) الألباني في صحيح الترمذي برقم/2465

وكل ما ورد في السيرة من جهد لتجسيد سلوكي واجتماعي لكل ذلك في واقع الحياة، يتمحور حول تأسيس الوعي بهذه الكليات المقاصدية الخمسة، وتعميقه في النفوس، وتجسيده في واقع الحياة، وما عداه من مقاصد وكليات سننية، فهو خادم لهذه المقاصد الكلية كما نرى ذلك لاحقا في محتوى الدوائر المركزية التالية من المنظور السنني الإسلامي الكوني.

منظومة السنن الكلية الناظمة لحركة الاستخلاف البشري في الأرض

والسؤال المنهجي المهم جدا بعد تحديد هذه الكليات المقاصدية المركزية الخمسة لحركة الحياة البشرية في الأرض، هو: كيف تتحقق هذه المقاصد الكلية على المستوى العملي؟ هل هناك قوانين كلية تحكم تحقيق هذه المقاصد الكلية للحياة البشرية؟ أم أن القرآن اكتفى بتحديد هذه المقاصد الكلية للحياة، وترك المجال مفتوحا للجهد والمبادرة البشرية لتتحرك كيفما تشاء لإنجاز هذه المقاصد الكلية للحياة؟ أم أن القرآن لم يقف عند تحديد هذه المقاصد الكلية للحياة، بل مضى قدما لتحديد معالم رؤية أو نظرية كلية واضحة لتحقيق استراتيجية أو مشروع **التوحيد والخلافة والعبودية والعمران الحضاري وتهيئة مآلات المصير الأخروي للإنسان؟**

والخلاصة التي يمكن أن تخرج بها الدراسة الاستقرائية للقرآن والسنة والسيرة النبوية بالخصوص، تتمحور حول **أربع منظومات سننية كلية**، نافذة في حياة الإنسان، وهي التي تقرر طبيعة ومسار حركة الاستخلاف البشري في الأرض، ومن ثم طبيعة المآلات الأخروية للمصير البشري بعد ذلك، وهي:

منظومة فقه سنن الابتلاء([1]): فالابتلاء هو القانون الكلي المحوري الذي يحكم حركة الاستخلاف البشري في الأرض، ويؤثر بعمق في طبيعة صيروراتها الحضارية، ويعطيها صبغتها الأخلاقية الإنسانية التكاملية الخيِّرة، أو المادية التكاثرية الاستكبارية المتوحشة، ويحدد طبيعة مساراتها ومداها التاريخي. أي أن الموقف منه هو الذي سيحدد الموقف من كليات مقاصد الحياة العامة التي ذكرت في المبحث السابق. قال تعالى: (**تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ** (الملك: 1، 2) وقال سبحانه: (**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**) (الأنعام: 165). وقال كذلك: (**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**) (الكهف: 7).

ومنظومة فقه سنن المدافعة([2]): والمدافعة كحركة استجابة للحاجات والتحديات أو الابتلاءات التي تطرحها محاولة تجسيد مقاصد الحياة الخمسة السابقة، هي القانون الثاني الذي يحكم حركة الاستخلاف البشري في الأرض بشكل مطرد في المنظور السنني القرآني للحياة. ولذلك فإن طبيعة المدافعة الثقافية والاجتماعية والحضارية، هي التي تحدد مصائر الصيرورات الحضارية للأفراد والمجتمعات والحضارات الإنسانية على مر التاريخ، لم يشذ ولن يشذ عن ذلك أحد من

([1]) أنظر : إبتلاء الإرادة لحبنكة الميداني، وفقه الابتلاء لأبي فيصل البدراني، مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية، الطيب برغوث، دار قرطبة، الجزائر 2004. ص/53

([2])ابن خلدون، المقدمة /114، تفسير المنار، نسخة الشاملة 114/4، سيد قطب، في ظلال القرآن، 4/ 2425

الجماعات البشرية على الاطلاق([1]). قال تعالى: **(وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)** (البقرة: 251). **(وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)** (الحج:40).

ومنظومة فقه سنن المداولة([2]): القانون المحوري الثالث المؤثر في الصيرورات الحضارية لحركة التاريخ البشري في الأرض، في المنظور السنني القرآني هو **قانون المداولة الحضارية**([3]). فالوجود الحضاري البشري تحكمه **التداولية الحضارية**، التي تعتبر أبرز الظواهر أو السنن التاريخية الناظمة لحركة الاستخلاف البشري في الأرض على الإطلاق. فنحن أمام وضع بشري مستقر على جماعات وأمم صاعدة أو مهيمنة، وجماعات وأمم أخرى نازلة ومستضعفة.. هذا هو دأب أو قانون الحياة البشرية منذ بدايتها الأولى، لم يتغير ولن يتغير إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وهذا ما أشار إليه القرآن في قوله تعالى: **(إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)** (آل عمران: 140).

ومنظومة فقه سنن التجديد([4]): القانون المحوري الرابع المؤثر في الصيرورات الحضارية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض هو **قانون التجديد**. ففعالية المدافعة الحضارية المؤثرة بشكل حاسم في اتجاه المداولة الحضارية، مرتبطة بطبيعة وحجم التجديد الذي يحدثه الفرد أو المجتمع بشكل مستمر، في وعيه بالمقاصد الكلية للحياة، وبالسنن الكلية الناظمة لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، وببقية المنظومات السننية الأخرى التي سيرد الحديث عنها لاحقا. كما يتضح ذلك على سبيل المثال في قوله تعالى: **(ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)** (الأنفال: 53)، وقوله سبحانه: **(إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ)** (الرعد: 11).

هذه باختصار منظومة السنن الكلية الناظمة لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، والتي تنتهي على المستوى التنظيري العام إلى **استخلاص إطار عام لنظرية كلية في فلسفة التاريخ والحضارة، تتلخص في كون حركة التاريخ الحضاري البشري تحكمه باستمرار نظرية أو سنة " المدافعة والتجديد "، وأن الموقف الفكري والعملي من معطيات ومقتضيات هذه المدافعة وهذا التجديد، هو الذي يحدد طبيعة ومسار وأفق المداولة الحضارية، ومداها التاريخي بشكل مستمر لا يتغير**. **(سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً)** (**الأحزاب**: 62).

([1]) تفسير المنار، نسخة الشاملة 114/4

([2]) تفسير المنار 220/8، ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 352/30

([3]) محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر 1984. ج100/4

([4])مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، /35، الطيب برغوث، مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية/67، أنظر في ضرورة التجديد: عدنان محمد أمامة، التجديد في الفكر الإسلامي، دار ابن الجوزي، دمشق /21

منظومة السنن الكلية المتعلقة بالتسخير الإنجازي

والسؤال المنهجي المهم التالي، بعد تحديد معالم هذه الرؤية أو المنظومة السننية الكلية، التي تتم عبرها الصيرورات الحضارية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض بشكل مطرد، هو: هل تضمن القرآن والسنة والسيرة رؤية أو منظومة سننية كلية شمولية متكاملة حول فقه الإنجاز الفعلي الذي يضمن تحقق حركة الاستخلاف البشري في الأرض بشروط ومقومات **الابتلاء والمدافعة والمداولة والتجديد؟** أم أن القرآن ترك المجال مفتوحا للجهد والمبادرة والتجربة البشرية المفتوحة؟

والخلاصة التي يمكن أن تخرج بها الدراسة الاستقرائية للقرآن والسنة والسيرة، هي أن الله تعالى وضع ميزانية تسخير كونية للخلافة البشرية في الأرض، تتكون من أربع منظومات سننية كونية كلية، يرجع إليها كل ما تحتاج إليه حياة الإنسان من إمكانات تسخيرية لإنجاز مهمة التوحيد والخلافة والعبودية والعمران والتهيأ للحياة الأخروية، على أكمل وجه، وهي:

منظومة سنن الآفاق([1]): وهي تحتوي على كل ما يتعلق بالقوانين المتحكمة في العالم المادي؛ في الإنسان وفي الطبيعة والكون من حوله([2]). قال تعالى: (**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**) (الجاثية: 13). وهذه المنظومة السننية الكونية الأولى، موضوعة تحت سلطة العقل والتجربة والخبرة مباشرة، حيث يمكن للإنسان أن يكتشف الكثير من قوانين هذه المنظومة السننية الكونية، عبر الملاحظة والتجربة، ومن خلال الاستفادة من الخبرات الإنسانية السابقة، ويمتلك القدرة على استثمار معطياتها المتنوعة في تلبية حاجات خلافته في الأرض، ومواجهة التحديات التي تعترضها، وهو ما يشير إليه القرآن في مثل قوله تعالى: (**كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُوراً**) (الإسراء: 20). فعطاء الربوبية ممدود لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم، فمن اهتدى إلى سننه انتفع به ولو كان كافرا، ومن لم يهتد إلى سننه حرم منه ولو كان مؤمنا([3]).

ومنظومة سنن الأنفس([4]): وهي تحتوي على كل ما يتعلق بالقوانين المتحكمة في كل ما هو فكري ونفسي وسلوكي واجتماعي وسياسي وحضاري في الخلافة البشرية في الأرض، أي في كل ما له صلة بالجانب الإنساني من العمران الحضاري البشري، الذي يشكل الساحة الفعلية لتجليات التوحيد والخلافة والعبودية، وتهيئة المصير الأخروي للإنسان، كما سبق بيان ذلك. والجزء الأكبر من المعرفة التي تتعلق بهذه المنظومة، موضوعة تحت سلطة العقل والتجربة والخبرة والاقتباس أو التلاقح الثقافي والحضاري بين البشر كذلك، حيث يمكن للإنسان أن يكتشف الكثير من قوانين هذه

([1]) أبو عبد الله محمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ط2، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم اطفيش، دار الكتب المصرية القاهرة 1964. ج374/15، محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، القاهرة 1997. ج2633/5

([2]) أبو عبد الله محمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ط2، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم اطفيش، دار الكتب المصرية القاهرة 1964. ج374/15

([3]) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، القاهرة 1997. ج2633/5

([4]) محمد إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام، ترجمة محمد يوسف عدس، دار الكتاب اللبناني 2011. ص/229

المنظومة السننية الكونية، عبر الملاحظة والتجربة والاستقراء والاستنباط والتعلم، والاستفادة من الخبرات الإنسانية السابقة، ويبني عليها حركة عمرانه الحضاري البشري. قال تعالى: (**قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**) (آل عمران: 137).

ومنظومة سنن الهداية([1]): وهي تحتوي على كل ما يتعلق بقوانين عالم الغيب وما لا طاقة للعقل البشري للاستقلال به، من قضايا العقيدة والعبادة والأخلاق وثوابت الفطرة وأصول الاجتماع الحضاري البشري عامة. وهي لا تحصل عن طريق العقل والتجربة والخبرة والرغبة الذاتية، بل تأتي عن طريق الوحي حصرا. يقول ابن تيمية في مضمون ووظيفة الرسالات السماوية بأن " الأنبياء يخبرون بمحارات العقول لا بمحالات العقول "([2])، أي بما تحار فيه العقول وتعجز عن إدراكه، وليس بما تستقل العقول بإدراكه، فإنه موضوع تحت سلطة العقل والخبرة والتجربة كما أسلفنا، إلا أن يشذ العقل عن المقصد والهدف ويضر بهما، فيتدخل الوحي لتسديده، وإعادة التوازن له، ليمضي قدما في طريق الملاحظة والافتراض والتجريب والاستنتاج والاجتهاد والتجديد الإبداعي اللامحدود في مجالات سنن الآفاق وسنن الأنفس، بل وسنن الهداية ذاتها، كما جاء ذلك في الحديث النبوي ذاته: (**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**) ([3]).

ومنظومة سنن التأييد([4]): وهي تحتوي على كل ما يتعلق بالعون والتأييد الإلهي المباشر وغير المباشر للإنسان، في كافة مراحل " **الدورة الإنجازية** " للفعل الإنساني، وخاصة عندما يتعلق الأمر بحالة عجز قدراته التسخيرية المستمدة من المنظومات السننية التسخيرية الكونية الثلاثة السابقة، عن مواجهة التحدي المطروح عليه، فيلجأ إلى استثمار معطيات هذه المنظومة السننية التسخيرية الكونية بشروطها اللازمة([5]). فالإنسان عليه أن يستفرغ وسعه في استثمار معطيات المنظومات السننية الثلاثة السابقة أولا، في الوفاء بحاجات حياته، فإذا استوفى ذلك على الوجه المستطاع، لجأ إلى استثمار معطيات منظومة سنن التأييد([6]).

([1]) يوسف حامد العالم، المقاصد العامة للشريعة/222، ناصر الدين الألباني، صحيح أبي داود برقم/4291

([2]) مجموعة الرسائل والمسائل، عبد الحليم بن تيمية، مرجع سابق 82/1.

([3]) صحيح أبي داود، ناصر الدين الألباني برقم/4291

([4]) أنظر تفاصيل هامة عن شروط استثمار هذه المنظومة، في دراستنا عن: المنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها في مرحلة بناء الدولة. (أطروحة دكتوراه مخطوطة بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر)، الفعالية الحضارية والثقافة السننية، الطيب برغوث /169

([5]) أنظر تفاصيل هامة عن شروط استثمار هذه المنظومة، في دراستنا عن: المنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها في مرحلة بناء الدولة والمجتمع. ص/203.

([6]) أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت 2003. ج266/1

منظومة السنن الكلية المتعلقة بالوقاية الحضارية

في ملاحظة مهمة جدا، تتعلق بفقه الثورة أو التغيير عامة، ينبه مالك بن نبي إلى أن مصير الثورات وحركات التغيير، ليس مضمونا بمجرد النجاح في إطلاق هذه الثورات أو إحداث هذه التغييرات الكبرى، بل إن الخبرة التاريخية المستفيضة تبين كيف أن نجاح الكثير منها عابر واحتمالي، وربما تحول إلى ثورة مضادة ! ويخلص إلى نتيجة مهمة جدا في هذا السياق هي أن "نجاح ثورة ما أو فشلها، هو بقدر ما تحتفظ بمحتواها أو تضيعه في الطريق، وهذا كله يخضع لقانون"([1]).

فالتغيير الذي لا يصل إلى أهدافه المرسومة، ولا يحافظ على منجزاته، ويقف في بداية الطريق أو منتصفه أو يتنكب طريقه، ليس تغييرا([2])، بل هو أقرب إلى العبث وهدر الجهد والوقت والإمكانات، وتضييع الفرص، ومراكمة المشكلات ومضاعفة التحديات، كما نبه القرآن على ذلك من خلال هذا المثل الذي ضربه للجهد العبثي الضائع([3]): (**وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً**) (النحل: 92).

والتأمل الاستقرائي في القرآن والسنة والسيرة النبوية، يفضي بنا إلى ملاحظة مدى العناية الكبيرة التي حظي بها هذا البعد في المنظور السنني الإسلامي الشمولي التكاملي، حيث تم التأكيد إبتداء على أهمية وضرورة العناية بهذا البعد الوقائي، ثم توزعت بعد ذلك العناية المركزة بفقه الوقاية على ثلاثة محاور كبرى، لا تخلو منها أية " **دورة إنجازية** " لأي فعل تغييري كبيرا كان أم صغيرا، كما سنبين ذلك لاحقا.

والنظرة الشمولية التكاملية في القرآن والسنة والسيرة النبوية، في هذا السياق، تؤكد على ثلاث منظومات كبرى هي:

منظومة سنن الوقاية الاسشرافية المبكرة ومستلزماتها: فالتغيير يحتاج باستمرار إلى **حركة وقائية احترازية مبكرة**، تبدأ مع المراحل المبكرة للتفكير في الفعل أو الموقف والشروع في التخطيط له، وتهيئة شروط الانطلاق في تنفيذه، لتُخَلِّصه من أية ثغرات أو نواقص سلبية، بإمكانها أن تؤثر على أصالته، أو تحدَّ من فعاليته، أو تنقص من طول نفسه وإمكانية اطراده. وفي الحديث: (**اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**)([4]).

ومنظومة سنن الوقاية الآنية المرافقة ومستلزماتها: ولما كان الفعل الإنساني معرضا باستمرار للضعف وتعتريه نواقص وأخطاء شتى أثناء الطريق، فإن استيفاء المرحلة الاستشرافية المبكرة السابقة لشروطها، لا يكفي في تحقيق الوقاية المطلوبة، بل لا بد من متابعة عملية الإنجاز لتحقيق الوقاية الآنية المرافقة للعملية التغييرية مباشرة، فكل مرحلة من مراحل " **الدورة الإنجازية** " للفعل، تحتاج إلى وقاية.

([1]) مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه، ط2، دار الفكر، دمشق 1988. ص/14

([2])الطيب برغوث، سلطة المنهج في الحركة النبوية / 105، 118

([3]) ابن جرير الطبري، جامع البيان، نسخة المكتبة الشاملة. ج343/14

([4]) محمد ناصر الدين الألباني، صحيح الجامع، ط3، المكتب الإسلامي، بيروت 1408. حديث رقم/97

وكلما نجحت عملية الوقاية في المرحلة الراهنة ساهم ذلك بشكل كبير في توفير شروط وفرص أكبر لنجاح المرحلة التالية، لأن ذلك يحقق كثافة التركيز للجهد والإمكانات والوقت على واجب المرحلة أو الوقت، ما دامت المرحلة السابقة من دورة الفعل قد تمت بدون نواقص أو مضاعفات أو ديون تثقل كاهل المرحلة الراهنة.

ومنظومة سنن الوقاية الاستدراكية ومستلزماتها: وقد تشذ عن الوقاية الاستشرافية المبكرة، أو الوقاية الآنية المرافقة، بعض النواقص والأخطاء، ولذلك تتواصل عملية الوقاية لترصد وتستشرف الآفاق المرحلية والاستراتيجية للفعل والموقف في خط سيرهما وتأثيرهما البعيد، وفي خطوط تكاملهما وانسجامهما مع بقية مكونات ومؤثرات الحراك الاجتماعي والحضاري الكلي في المجتمع والأمة والعالم.

نتائج عرض المنظور السنني:

الأهمية المحورية للمنظور السنني في التغيير الحضاري: وباستيفاء المنظور السنني الإسلامي الكوني لهذه الدائرة المركزية الرابعة من منظومات السنن الكلية التي تحتاج إليها حركة الحياة الإنسانية، تكون المعالم الكبرى لهذا المنظور قد اكتملت واتضحت، وأصبحت أمامنا خريطة فكرية ومنهجية متكاملة لتحليل وتفسير، وإدارة الصيرورات الحضارية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، بالشكل الذي يحقق الأصالة والفعالية والتكاملية والاطرادية التاريخية في حركة المدافعة والمداولة الحضارية.

محورية نظرية المدافعة والتجديد في المنظور السنني: وإذا كان لا بد من صيغة مختصرة ينتهي إليها التعريف بهذه الرؤية أو المنظور السنني الكلي المستخلص، كما سبق توضيح ذلك، فإني قد فضلت بأن يُعرف بـ" **نظرية المدافعة والتجديد** ". هذا هو العنوان الرئيس لهذا المنظور السنني الكلي الذي تضعه الرؤية الإسلامية بين أيدينا لتحليل وتفسير الصيرورات التاريخية للظاهرة الحضارية، واستشراف آفاقها المستقبلية. وأنا أفضل عرضه في إطار نظرية كلية، من باب الاحتياط العلمي الذي لا يحمِّل الإسلام ما قد يكون في هذه الرؤية أو المنظور من نواقص من ناحية، إذا ما عرض في صيغة إطار قانون كلي. ومن باب احترام منطق النسبية العلمية التي تحكم الاجتهاد البشري كذلك من ناحية أخرى، وإفساحا لإمكانية التمحيص والمراجعة والإثراء والاستدراك من ناحية ثالثة.

فعلى الصعيد المعرفي المنهجي الوظيفي، فإن المنظور ينتهي إلى كون الصيرورات الحضارية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، تحكمها بشكل مطرد لا يتخلف، معادلة **المدافعة والتجديد**. فالمداولة الحضارية التي تسم حركة الاستخلاف البشري في الأرض بشكل مطرد، هي باستمرار محصلة للموقف الفكري والاجتماعي للإنسان من **حركة المدافعة والتجديد** المهيمنة على الحياة البشرية. ففاعلية التجديد الثقافي والاجتماعي والحضاري، تعطي فعالية وكفاءة المدافعة الثقافية والاجتماعية والحضارية، وفاعلية المدافعة تعطي فاعلية المداولة الحضارية، وهكذا دواليك تطرد حركة الاستخلاف البشري في الأرض دون تبدل أو تحول كما تقرر ذلك في القرآن: (**فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً**) (**فاطر: 43**).

محورية الوعي بكونية الأفق الحضاري للتغيير في المنظور السنني القرآني: ومن النتائج الأساسية المهمة كذلك، كون المنظور السنني القرآني يركز في تفسيره لحركة الوجود الكوني عامة والجود الحضاري البشري خاصة، على

البعد الكوني والإنساني في الظاهرة الحضارية، ولا ينحبس في الآفاق الفردية أو الأسرية أو الطبقية أو القومية الجزئية المحدودة، المهيمنة على المنظورات التحليلية والتفسيرية للظاهرة الحضارية بشكل عام.

فالقرآن وإن كان منفتحا، من حيث العرض أو الوصف والتحليل الموضوعي للظواهر، على كل هذه الدوائر والأبعاد الفردية والطبقية والقومية وما بعد القومية، إلا أنه على مستوى التفسير والاستشراف خاصة، يدفع بالفهم والوعي البشري باستمرار، إلى **آفاق الخيرية والعالمية والإنسانية والكونية** من ناحية، وإلى ضرورة الانسجام مع النواظم السننية التي تؤثر، بطريقة أو أخرى، في صياغة وتشكيل الوعي البشري، ومن ثم في صياغة وتشكيل الصيرورات الحضارية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض من ناحية أخرى.

فالأبعاد الروحية والأخلاقية والعالمية والإنسانية والكونية، أبعاد محوري أصيلة في المنظور السنني القرآني([1])، تراها حاضرة باستمرار في منهجية تحليل الظواهر الثقافية والاجتماعية والحضارية، وتفسيرها واستشراف صيروراتها المستقبلية، كما يتضح ذلك على سبيل المثال في الربط المستمر بين الأبعاد المادية والروحية، والدنيوية والأخروية، والعقلية والعاطفية، والفردية والجماعية، والتاريخية والآنية، والحرية والمسئولية، والحق والواجب، والأسباب والمسببات، والمقدمات والنتائج.. في حياة الإنسان.

محورية الوعي بنظرية المدافعة والتجديد في مصير التغيير الحضاري:

هذا هو المنظور الذي ينبغي أن يحكم علاقاتنا المعرفية والوظيفية أو العملية بالقرآن والسنة والسيرة النبوية أولا، وبمجمل الخبرة المعرفية والحضارية للأمة والإنسانية ثانيا؛ تحليلا وتفسيرا واستشرافا واستثمارا، إذا أردنا فعلا أن نضمن لجهدنا التجديدي أصالته الفكرية، وعمقه الروحي والأخلاقي، وفعاليته وكفاءته الإنجازية، وتكامليته الاجتماعية، واطراديته التاريخية. فنجاح أو فشل أي مشروع نهضة حضارية، يرتبط إلى حد بعيد بمدى شمولية وعمق الوعي بنظرية المدافعة والتجديد، والالتزام بمقتضايتها وشروطها في عملية إنجاز التغيير.

هذه هي النتائج الأساسية لعرض المنظور السنني القرآني في تحليل الظواهر الحضارية وتفسيرها، وهي نتائج حاضرة في عرض القرآن وتقييمه للتجارب الحضارية البشرية عبر التاريخ، كما يتجلى ذلك في القصص القرآني عامة، الذي تهيمن على تفسيره **معادلة المدافعة والتجديد** بشكل مستمر.

آفاق حركة النهضة الإسلامية المعاصرة على ضوء نظرية المدافعة والتجديد:

الآن وبعد أن عرضنا الإطار الفكري والمنهجي العام للمنظور السنني القرآني الشمولي التكاملي، ولخصناه في ما أسميناها "**بنظرية المدافعة والتجديد**" وما يتصل بها من شبكة سنن عضوية مترابطة، نحاول تطبيقه على تقييم حركة النهضة الإسلامية المعاصرة، التي طال بها طريق إحداث التغيير الحضاري المطلوب، وتحقيق النهضة الحضارية المرجوة، التي تنقل الأمة من مرحلة **الغثائية الحضارية**، إلى مرحلة **الإقلاع الحضاري**، ومنها إلى مرحلة **المواكبة الحضارية**، ثم إلى

([1]) محمد مصطفى حلمي، الحياة الروحية في الإسلام، دار الكتاب المصري، القاهرة 2011. ص/4

مرحلة **المنافسة الحضارية**، ومنها إلى مرحلة **الريادة الحضارية**، وهي المراحل أو المفاصل الكبرى التي يتشكل منها المسار الطويل للنهضة الحضارية كظاهرة تاريخية تحكم حركة الاستخلاف البشري في الأرض بشكل مطرد كما سبق بيان ذلك.

الأزمة الحضارية والتغيير الحضاري في المنظور السنني القرآني:

ونتساءل في البداية بين يدي هذا التقييم عن:

الأزمة الحضارية: ما هي؟ وكيف تحدث في المجتمع أو الأمة أو الإنسانية عامة؟ على ضوء النموذج التحليلي التفسيري الاستشرافي السابق. أو ما أسميناه بالمنظور السنني القرآني الكوني؟

والتغيير الحضاري أو النهضة الحضارية: ما هي؟ أو ماذا تعني؟ وكيف تنطلق أو تتحقق؟ على ضوء النموذج التحليلي التفسيري الاستشرافي السابق. أو ما أسميناه بالمنظور السنني القرآني الكوني؟

والخريطة الهيكلية التي يقدمها لنا هذا المنظور السنني القرآني الكوني المتكامل، تعيننا كثيرا على الإجابة على هذه الأسئلة، لأن استحضارها في عملية تقييم التجارب الثقافية والاجتماعية والحضارية المختلفة، تساعدنا على اكتشاف الاختلالات التي تؤدي إلى حدوث الأزمات الفكرية والاجتماعية والحضارية، وتعيق عملية إنجاز التغيير الحضاري والنهضة الحضارية، ومن ثم فهم أسباب الضعف والقصور، وامتلاك خريطة كاملة عنها، وعن مواقعها، وطبائعها وأحجامها، وهو ما يمكننا من وضع استراتيجيات تغييرية واقعية فعالة، منطلقة من الواقع الموضوعي الحقيقي التاريخي والمعيش من ناحية، ومن الواقع السنني المرجعي الذي يجب أن تتحرك نحوه عملية التغيير بشكل مستمر من ناحية أخرى.

ومع الأسف فإن الكثير من عمليات المراجعة والتقييم والاسستشراف، لا تنطلق من معرفة شمولية تكاملية حقيقية بالواقع الموضوعي التاريخي والمعيش، كما أنها لا تنطلق من معرفة شمولية تكاملية حقيقية بالإطار الكلي للواقع السنني المرجعي، وإنما كثيرا ما تنطلق من تصورات ورغبات ومصالح وأهواء أفراد أو عائلات أو كتل أو طبقات أو أجيال.. ثم تُفرض على عملية التقييم والفهم والاستشراف بعد ذلك، الأمر الذي كثيرا ما يئول بها إلى الإخفاق في نهاية الأمر، لتعْقُبَها تجارب أخرى تمر بنفس المسار، لتنتهي إلى نفس النتائج تقريبا ! وهكذا دواليك يتواصل الإخفاق ويتراكم، وتتضاعف تبعاته لتحدث "**مديونية حضارية** " يصعب الانفكاك من تبعاتها الخطيرة.

فإذا كان الوعي **بنظرية المدافعة والتجديد** كما عرضناها في هذه الدراسة، يشكل شرطا رئيسا في تحقيق تغيير حضاري ومداولة حضارية أصيلة وفعالة ومتكاملة ومطردة، أي في تحقيق نهضة حضارية إنسانية صاعدة، فإن ضعف أو اضطراب أو انعدام الوعي بهذه النظرية ومقتضياتها الشرطية، يشكل سببا رئيسا من أسباب الفشل في تحقيق تغيير

حضاري ومداولة حضارية صاعدة، ويحكم على المجتمع أو الأمة أو الإنسانية بالضعف والتقهقر والغثائية أو الضنكية الحضارية * كما يصفها القرآن الكريم([1])، ويحذر الناس منها ومن تبعاتها الآنية والمستقبلية الخطيرة([2]).

وأنا لا أريد هنا أن أعرض التقييم على كل مفردات خريطة المنظور السنني القرآني كما أوضحت معالمه في هذه الورقة، لضيق المجال، ولكني أكتفي بالإشارة إلى المحاور الكبرى للمنظور ممثلة في **المقاصد الكلية للحياة أولا، وفي منظومات سنن الله الناظمة للصيرورات الحضارية لحركة الاستخلاف في الأرض ثانيا، ومنظومات سننه في التسخير الإنجازي ثالثا، ومنظومات سننه في الوقاية الحضارية الشاملة رابعا** من ناحية، وإلى خلاصة النظرية أو الرؤية المهيمنة على الظاهرة الحضارية في قوتها وضعفها، وامتدادها وتراجعها من ناحية أخرى، ممثلة في " **نظرية المدافعة والتجديد** ".

وعرض أية تجربة تغييرية نهضوية على ضوء معالم الخريطة الكلية لهذا المنظور السنني القرآني الكوني المتكامل، يكشف لنا عن مواطن القوة والتوازن والنجاح في هذه التجربة، ومواطن الضعف والاختلال والقصور والفشل فيها. وهو ما يساعدنا كثيرا على تحديد مفهوم الأزمة الحضارية ومعرفة كيف تحدث في المجتمع والأمة. كما يساعدنا كذلك على معرفة مفهوم النهضة وكيف تحدث في المجتمع والأمة.

فالنهضة الحضارية الصاعدة على هذا الأساس، تحدث عندما تكون الحركة الثقافية والاجتماعية والحضارية في المجتمع والأمة، في حالة تناغم مطرد مع **المقاصد الكلية للحياة أولا، ومع منظومات سنن الله الناظمة للصيرورات الحضارية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض ثانيا، ومع منظومات سننه سبحانه في التسخير الإنجازي ثالثا، ومنظومات سننه في الوقاية الحضارية الشاملة رابعا**، وهو ما يمنح مدافعته الثقافية والاجتماعية والحضارية مزيدا من الأصالة والفاعلية والتكاملية والاطراد، ويدفع به قدما على طريق المداولة الحضارية الصاعدة.

والأزمة الحضارية تحدث عندما تكون الحركة الثقافية والاجتماعية والحضارية في المجتمع والأمة، في حالة عدم انسجام مطرد مع **المقاصد الكلية للحياة أولا، ومع منظومات سنن الله الناظمة للصيرورات الحضارية لحركة الاستخلاف في الأرض ثانيا، ومع منظومات سننه سبحانه في التسخير الإنجازي ثالثا، ومنظومات سننه في الوقاية الحضارية الشاملة رابعا**، وهو ما يؤدي مع مرور الوقت، إلى ضعف أصالة وتكاملية واطرادية فعالية مدافعته

---

* الضنكية هنا تشمل كذلك المجتمعات التي حققت مداولتها الحضارية بمعزل عن شمولية وتكاملية النظرة إلى المنظور السنني الكوني المتكامل، واقتصرت على استثمار بعض منظوماته التسخيرية فقط، ولم تستثمر كل منظوماته، حيث لا بد أن تطالها مضاعفات هذه التجزيئية والتنافرية في العلاقة بمنظومات سنن الله في المقاصد الكلية للحياة، ومنظومات سننه في الحركة الاستخلافية، وفي التسخير الإنجازي، وفي الوقاية الحضارية.

([1]) أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، تفسير النسفي، تحقيق مروان محمد الشعار، دار النفائس، بيروت 2005. ج3/105

([2]) تفسير المنار 24/9

الثقافية والاجتماعية والحضارية، ويدفع به إلى التقهقر وإلى المزيد من التخلف والضعف والغثائية والتبعية الحضارية المنهكة في نهاية المطاف.

تحليل الدورة الحضارية الإسلامية في مرحلة صعودها: ونحن إذا أردنا أن نحلل الآن الدورة الحضارية الإسلامية الأولى في انطلاقتها التاريخية الصاعدة، على سبيل المثال، وتساءلنا عن سر ذلك الصعود المدهش([1])، وتلك المداولة الحضارية التي استمرت قرونا طويلة، كانت فيها الأمة الإسلامية هي القوة المركزية الأولى المنتجة للنماذج الثقافية والاجتماعية والحضارية المؤثرة في العالم([2])؟ فإننا سنصل في نهاية عرض وتحليل المعطيات التاريخية المختلفة، إلى أن ذلك يعود أساسا إلى **فعالية المدافعة الحضارية** الشاملة والمتكاملة والمطردة، التي اتسمت بها الحركة الثقافية والاجتماعية والحضارية للمجتمع والأمة، أمام بقية الأفعال والحركات الثقافية والاجتماعية والحضارية الأخرى المعاصرة لها، وكان لزاما أن تستوعب الحضارة الإسلامية بقية الحضارات الأخرى، وأن تهيمن عليها تبعا لذلك، وأن تحقق مداولتها وريادتها الحضارية في نهاية المطاف([3]).

وإذا تساءلنا عن **سر فعالية** هذه **المدافعة** الحضارية الشاملة، التي اتسم بها أداء المجتمع والأمة، واستعرضنا وحللنا مختلف المعطيات التاريخية كذلك، فإننا سنصل في نهاية المطاف إلى أن ذلك يرجع إلى تمكُّن الأمة من **تجديد شروط فعاليتها** الثقافية والاجتماعية والحضارية، بشكل أصيل وشمولي وتكاملي ومطرد، بغض النظر عما كان يلاحظ من نواقص واختلالات وانكسارات في بعض جوانب هذا التجديد، كما هو الشأن في الاختلالات البنيوية التي كانت ولا زالت تعاني منها الساحة السياسية، وأخفق فيها التجديد كثيرا، وشكلت سببا مهما جدا من أسباب الضعف والتراجع فيما بعد، على سبيل المثال([4])، لأن إخفاق التجديد في هذا المجال أدى إلى توطين منطق القوة في التداول على السلطة، وتكريس الاستبداد في تاريخ الأمة، حتى قيل بحق أن " أعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة، إذ ما سل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثلما سل على الإمامة في كل زمان ومكان "([5]).

إن هذه النواقص الجزئية لم تؤثر بشكل فوري مباشر على المسار التصاعدي لحركة المداولة الحضارية للأمة، التي ظلت تقطع مراحل مسار هذه المداولة الحضارية مرحلة بعد مرحلة، حتى وصلت إلى نهايته، ممثلة في مرحلة الريادة الحضارية الشاملة، التي نذكر نموذجا من الشواهد التاريخية الحية عنها، مما أورده ابن خلدون في حديثه عن هيمنة القوة الإسلامية على البحر الأبيض المتوسط ردحا طويلا من الزمن " وكان المسلمون لعهد الدولة الإسلامية قد غلبوا على هذا

([1]) ي. هل، الحضارة العربية، ترجمة إبراهيم أحمد العدوي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة،(د.ت). ص/و

([2]) أنظر على سبيل المثال: غوستاف لبون، حضارة العرب، وزيغريد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، ليفي بروفنسال، حضارة العرب في الأندلس، روجي قارودي، الإسلام في الغرب: قرطبة عاصمة العالم والفكر، وأبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، وعماد الدين خليل، مدخل إلى التاريخ الإسلامي.

([3]) ابن خلدون، المقدمة/114

([4]) مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي/30

([5]) محمد علي الكبيسي، نشأة الفكر السياسي عند العرب، دار الفكر، دمشق 2005. ص/62 (نقلا عن الملل والنحل للشهرستاني).

البحر من جميع جوانبه، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه، فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم بشيء من جوانبه، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم، فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه.. وسائر ممالك الروم والإفرنج.. والمسلمون خلال ذلك كله قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر، وسارت أساطيلهم فيهم جائية وذاهبة.. وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم إلى الجانب الشمالي الشرقي منه.. لا يعدونها. وأساطيل المسلمين قد ضربت عليهم ضراء الأسد على فريسته، وقد ملأت الأكثر من بسيط هذا البحر عدة وعدداً، واختلفت في طرقه سلماً وحرباً، فلم تسبح للنصرانية فيه ألواح "([1]).

وكما مر بنا، فإن المقصود بالتجديد هنا، هو مراجعة وتصحيح وتطوير العلاقة الفهمية والعملية أو الاستثمارية للأفراد والمجتمع والأمة **بالمقاصد الكلية للحياة أولا، وبمنظومات سنن الله الناظمة للصيرورات الحضارية لحركة الاستخلاف في الأرض ثانيا، وبمنظومات سننه في التسخير الإنجازي ثالثا، وبمنظومات سننه في الوقاية الحضارية الشاملة رابعا**، بشكل **أصيل وشامل وتكاملي ومطرد**.

فعندما كانت الأمة بمجموعها، تقوم بعملية التجديد الدائبة، على كل المستويات المشار إليها آنفا، كانت فعالية مدافعتها الثقافية والاجتماعية والحضارية متنامية وقوية ومؤثرة، وهو ما مكنها من تلبية حاجات نموها وتطورها، ومواجهة التحديات المحيطة بها، والمحافظة على توازنها أمام التحديات، وبالتالي كان الخط العام لمداولتها الحضارية ممتدا وصاعدا، تناغما مع منطق قانون التغيير الذي نوه إليه القرآن في قوله تعالى: (**ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**) (الأنفال: 53). فما دامت الأمة تتحرك على خط التجديد الحضاري الشامل المتكامل المطرد، فإن فعالية مدافعتها الثقافية والاجتماعية والحضارية ستظل مؤثرة ومانعة لها من الضعف والتراجع([2]). " وإنها لشرعة السماء، غير نفسك تغير التاريخ "([3])، أو " جدد نفسك تغير التاريخ ".

وما قلناه في تحليل الدورة الحضارية الصاعدة للأمة الإسلامية، يمكن قوله على أية دورة حضارية لأية أمة أخرى في التاريخ. فالدورة الحضارية الصاعدة مرتبطة بفعالية المدافعة الحضارية للأمة من جهة، وبمدى أصالة وفعالية وتكاملية واطردية **التجديد** الذي تحدثه هذه الأمة في علاقاتها الفهمية والعملية أو الإنجازية، **بالمقاصد الكلية للحياة أولا، وبمنظومات سنن الله الناظمة للصيرورات الحضارية لحركة الاستخلاف في الأرض ثانيا، وبمنظومات سننه في التسخير الإنجازي ثالثا، وبمنظومات سننه في الوقاية الحضارية الشاملة رابعا** من جهة أخرى. هذا هو قانون التغيير الحضاري، وشرط النهضة والمداولة الحضارية: " **الترقية المستمرة لمستوى فعالية المدافعة والتجديد** "، من أمسك به فهمًا واستثمارا، مضى على طريق النهضة والمداولة الحضارية الصاعدة إلى نهايته (**سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً**) (الأحزاب: 62).

([1]) المقدمة/189

([2]) سيد قطب، في ظلا القرأن 1535/3

([3]) ميلاد مجتمع، مالك بن نبي/35

تحليل الدورة الحضارية الإسلامية في مرحلة تراجعها: وعندما نحلل الدورة الحضارية للأمة في مرحلة تراجعها وضعفها وغثائيتها الحضارية، ونتساءل عن سر ذلك الضعف والتراجع أولا، وعن سر هذا العجز المزمن عن تحقيق نهضتها الحضارية المعاصرة ثانيا، رغم ما تبذله من جهود كبيرة ومستمرة منذ أكثر من قرنين من الزمن؟ فإننا سنصل في نهاية التحليل إلى أن ذلك يرجع إلى **ضعف فعالية مدافعهتا** الثقافية والاجتماعية والحضارية، التي أتاحت المجال لحدوث اختلالات كبيرة وعميقة في حياتها الفكرية والروحية والسلوكية والاجتماعية والحضارية، أعجزتها عن تلبية حاجات استمرار مداولتها الحضارية، وعن مواجهة التحديات المحيطة بها داخليا وإقليميا وعالميا، فكان من الضروري أن تضعف وتتقهقر، وتترك المجال لقوى حضارية جديدة صاعدة، ذات فعالية دفع أقوى وأدوم. فالدفع الحضاري الأقوى هو الذي يمضي نحو المراحل التالية من المداولة الحضارية، والدفع الحضاري الأضعف محكوم عليه بالتقهقر نحو المراحل الأدنى من المداولة الحضارية.

وإذا تساءلنا عن سر ضعف وتراجع فعالية المدافعة الثقافية والاجتماعية والحضارية للأمة، فسوف ينتهي بنا رصد وتحليل الأسباب والعوامل الكامنة وراء ذلك، مهما تعددت واختلفت، إلى مسئولية ضعف قدرتها على إحداث التجديد الفكري والروحي والسلوكي والاجتماعي والحضاري المطلوب، الذي يعيد بناء وعيها وعلاقاتها التسخيرية **بالمقاصد الكلية للحياة أولا، وبمنظومات سنن الله الناظمة للصيرورات الحضارية لحركة الاستخلاف في الأرض ثانيا، وبمنظومات سننه سبحانه وتعالى في التسخير الإنجازي ثالثا، وبمنظومات سننه في الوقاية الحضارية الشاملة رابعا.**

وإذا تساءلنا عن سر عدم تمكُّنها من تحقيق هذا التجديد المطلوب، فإننا سننتهي كذلك إلى أن محاولات التجديد لم تكن متسمة بالأصالة والفعالية والتكاملية والاطراد المطلوب، وهيمنت عليها الظرفية والتجزيئية والتنافرية والتلفيقية والمظهرية والاستئنافية المزمنة، ولم تكن محاولات هذا التجديد تجري على ضوء رؤية أو منظور سنني كوني شمولي تكاملي متوازن، كما جاء به القرآن والسنة، وجسدته السيرة النبوية وحركة النهضة الحضارية الإسلامية في دورتها الأولى.

فمحاولات التجديد التي كانت عرضة لصراع تنافري مزمن بين قوى المحافظة أو الإصلاح أو السلفية من ناحية، وقوى التحديث والعصرنة أو العلمنة من ناحية أخرى، وقوى التلفيق والتوفيق من ناحية ثالثة، هذه المحاولات التجديدية المتنوعة، لم يتمكن أي من هه القوى من الذهاب بها بعيدا على طريق التغيير والنهضة الحضارية الحقيقية حتى الآن، لأن أيا من هذه المحاولات، على تفاوت بينها، لم يستهد بنظرية أو رؤية سننية شمولية متكاملة في التغيير الثقافي، والإصلاح الاجتماعي، والتجديد الحضاري، كما جاءت معالمها في المنظور السنني القرآني الكوني الشمولي التكاملي، الذي لم تبذل جهود جدية لبلورته*، اكتفاء بالرصيد الذي أنجزته الدورة الحضارية الأولى للأمة واتكاء عليه، وهو ما حرم حركة النهضة الحضارية المعاصرة للأمة من شرط جوهري تتطلبه كل نهضة ذات نفس حضاري حقيقي، وتمترست بعض هذه القوى

* إذا ما استثنينا الجهود المهمة لابن خلدون ومالك بن نبي، وقلة من المفكرين والباحثين الذين اهتموا بفلسفة التاريخ والحضارة، وحاولوا بناء نظريات ورؤى ومنظورات سننية لتحليل الظواهر الحضارية وتفسير ها واستشراف آفاق تطورها، ظلت محاصرة ومهمَّشة ومعتَّما عليها، ومحارَبة أحيانا.

المتنافرة وراء النماذج التاريخية وراهنت عليها ولا تزال، وتاه البعض الآخر وراء استنساخ نماذج الحداثة المعاصرة، وراهن عليها، ومارس القطيعة التعسفية مع جوهر الهوية الذاتية للأمة، وراهن قطاع آخر عريض من نخبة المجتمع والأمة، على التوفيقية التلفيقية الشكلية، وكانت النتيجة أن فشلت كل هذه الخيارات التحديثية والإصلاحية والتوفيقية، في تحقيق التغيير المطلوب، وإحداث النهضة الحضارية المرجوة، بدليل الواقع المتخلف الذي لا يمكن أن يقفز عليه أحد أو ينكره، لأنه واقع معيش وضخم في سلبياته ونواقصه.

وفي تقييم عميق لأسباب إخفاق جهود النهضة، ينتهي مالك بن نبي إلى هذه الخلاصة المهمة التي ما تزال صادقة ومعبرة تماما عما تعاني منه النهضة الحضارية المعاصرة للأمة، رغم مرور ما يقرب من ستين عاما عن ولادة هذه الخلاصة: "فالخطأ الذي وقع فيه المحدَثون ودعاة الإصلاح، ناتج عن أن كليهما لم يتجه إلى مصدر إلهامه الحق، فالإصلاحيون لم يتجهوا حقيقة إلى أصول الفكر الإسلامي، كما أن المحدثين لم يعمدوا إلى أصول الفكر الغربي"([1]). أي أن عمق الأزمة ما يزال يكمن في غياب نظرية أو منظور سنني شمولي تكاملي، يستند على العمق السنني للقرآن والسنة، والخبرة الحضارية للأمة من جهة، وعلى العمق السنني في الخبرة الحضارية الإنسانية من ناحية أخرى، وفي مقدمتها الخبرة الحضارية المعاصرة.

فالنهضة الحضارية في العالم الإسلامي، لم تنجح رغم ضخامة الجهود المبذولة، لأنها لم تستهد بنظرية أو رؤية سننية كونية متكاملة* **في فقه المقاصد الكلية للحياة، وفي فقه السنن الكلية الناظمة للصيرورات الحضارية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، وفي السنن الكلية لفقه التسخير الإنجازي، وفي فقه السنن الكلية للوقاية الحضارية الشاملة**، واكتفت باستدعاء خبرات جزئية من الماضي الذاتي للأمة حينا، وباستيراد خبرات جزئية من الحضارة المعاصرة حينا آخر، وبتلفيق خبرات شكلية جزئية من هذا وذاك حينا ثالثا، دون وعي عميق بخصوصيات وحاجات **طبيعة المعادلة الثقافية والاجتماعية والحضارية** للنهضة الحضارية الإسلامية المعاصرة، والفوارق والفواصل الكثيرة والكبيرة بينها وبين المعادلة الثقافية والاجتماعية والحضارية، التي أنشأت الخبرة التراثية التي يتكئ عليها أقوام ويراهنون عليها، وتلك التي أنشأت الخبرة الغربية المعاصرة، التي يتكئ عليها أقوام آخرون ويراهنون عليها، والأخرى التي يتكئ عليها التوفيقيون أو التلفيقيون ويراهنون عليها.

وهذا الخليط المتناقض من الخيارات الذاهلة عن خصوصية وطبيعة المعادلة الثقافية والاجتماعية والحضارية للنهضة الإسلامية المعاصرة، أو الجاهلة بها، كان لا بد أن يحدث هذا الاضطراب في مسيرة حركة النهضة، ويئول إلى هذه النتيجة الزهيدة، ويخلِّف وراءه " **مديونية حضارية** " غير عادية. وعن هذا الاستدعاء غير المنضبط سننيا، للأفكار والخبرات والتجارب، والزرع لها في بيئات وأوضاع ثقافية واجتماعية وحضارية مغايرة، يقول مالك نبي مشبها ذلك بالأخطاء القاتلة

([1]) وجهة العالم الإسلامي/70

* إن تأكيدنا على أهمية المنظور السنني الكوني الشمولي التكاملي، في نجاح عملية التغيير الحضاري، لا يعني أننا نغفل دور العوامل الكثيرة الأخرى، أو نهوِّن من شأن التحديات الداخلية والخارجية التي يواجهها أي تغيير أو نهضة ذات نفس حضاري، فنحن نؤمن بأن الأمر يحتاج دائما إلى التوازن بين الشروط التي تحتاج عملية التغيير، وفي هيكلية هذا المنظور الذي نتصور بأن القرآن ينفتح عليه، تم استيعاب كل ما تتطلبه العملية التغييرية من شروط متكاملة.

التي تحدث في عملية نقل الدم دون مراعاة لطبائع وخصوصيات فصائل هذا الدم المختلف من جسم لآخر: " ومن حقائق علم الحياة أن عملية نقل الدم تخضع لشروط وقواعد دقيقة تنبغي مراعاتها، مخافة أن يؤدي الأمر إلى زلزلة الجسم المتلقي والفتك به، فليس كل عنصر من عناصر الدم بقابل ليحل محل الآخر، لما بين فصائله من اختلاف عضوي يرجع في الحقيقة إلى اختلاف الأبدان ".

ويضيف مطبقا لهذه الحقيقة على نقل التجارب والخبرات الاجتماعية من بيئة وعصر إلى بيئة وعصر دون مراعاة لخصوصيات وطبيعة المعادلة الثقافية والاجتماعية والحضارية لتلك البيئة وذلك العصر: " هذه الحقيقة ذات الطابع الحيوي صادقة فيما يتعلق بالمجال العضوي التاريخي، فالعناصر الاجتماعية التي تسم الثقافات المختلفة، ليس كلها قابلة للتداول"([1]).

وهذا الوعي بضرورة مراعاة المعادلة الثقافية والاجتماعية والحضارية للواقع المراد تغييره وتحقيق النهضة فيه، أكَّد عليه جهابذة العلماء منذ القديم، واعتبروه من قواعد المنهج الأساسية، وسماه القرافي قانونا، وهو يتحدث عن شروط بناء الفقيه للفتاوى الشرعية وتنزيلها على الوقائع الفكرية والسلوكية والاجتماعية المختلفة، وكيف ينبغي أن تراعى في بنائها أوضاع الناس وحاجاتهم المختلفة، فقال: "وعلى هذا القانون تجيء الفتاوي على طول الأيام، فمهما تجدد في العرف فاعتبره ومهما سقط فألغه ولا تجمد على المنقول في الكتب طول عمرك بل إذا جاءك رجل من غير إقليمك يستفتيك فلا تجره على عرف بلدك وسله عن عرف بلده فأجره عليه وأفته به دون عرف بلدك والمذكور في كتبك. فهذا هو الحق الواضح والجمود على المنقولات أبدا ضلال في الدين وجهل بمقاصد علماء المسلمين والسلف الماضين"([2]).

ويذهب إلى أبعد من ذلك في التأكيد على ضرورة مراعاة المعادلة الثقافية والاجتماعية والحضارية للأفراد والمجتمعات، عند نقل أحكام الشريعة وهداياتها إليهم عامة، ومحاولة تطبيقها عليهم، وتحكيمها في شئونهم الخاصة والعامة، فيقول: " بل ولا يشترط تغير العادة، بل لو خرجنا نحن من ذلك البلد إلى بلدٍ آخر عوائدهم على خلاف عادة البلد الذي كنا فيه، أفتيناهم بعادة بلدهم، ولم نعتبر عادة البلد الذي كنا فيه. وكذلك إذا قدم علينا أحد من بلد عادته مضادة للبلد الذي نحن فيه لم نفته إلا بعادة بلده دون عادة بلدنا"([3]).

ولأهمية هذا الكلام ونفاسته، وأصالته الشرعية السننية، علق عليه ابن القيم بقوله: "وهذا محض الفقه، ومن أفتى الناس بمجرد المنقول في الكتب على اختلاف عرفهم وعوائدهم، وأزمنتهم وأحوالهم وقرائن أحوالهم، فقد ضل وأضل، وكانت جنايته على الدين أعظم من جناية من طبب الناس كلهم على اختلاف بلادهم وعوائدهم وأزمنتهم وطبائعهم،

([1]) نفسه/80

([2]) شهاب الدين القرافي، الفروق، عالم الكتب، بيروت (المكتبة الشاملة). ج191/1

([3]) شهاب الدين القرافي، افحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام، اعتنى به عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية،، بيروت 1995. ص/219

بما في كتاب من كتب الطب، على أبدانهم، بل هذا الطبيب الجاهل وهذا المفتي الجاهل أضر ما على أديان الناس وأبدانهم"([1]).

وعلى هذا فإن الذين يستنسخون نماذج من الخبرة التراثية للأمة، والذين يستنسخون نماذج من الخبرة الحضارية المعاصرة، والذين يجرون وراء التوفيق والتلفيق الشكلي بين هذا وذاك، دون اعتبار لخصوصيات وحقائق المعادلة الثقافية والاجتماعية والحضارية للنهضة الإسلامية المعاصرة، أو معادلة أي مجتمع أو أية نهضة أخرى، هؤلاء جميعا يقفزون على سنة أساسية في التغيير الثقافي والاجتماعي والحضاري([2])، وهو ما يعرِّض جهودهم للإخفاق، ويتسبب في حرمان مجتمعاتهم من تحقيق نهضتها المطلوبة، وتعميق ضعفها وتخلفها وغثائيتها وتبعيتها الحضارية.

الطريق إلى النهضة الحضارية: والطريق السالك إلى النهضة الحضارية، يتم عبر بناء الوعي بالمنظور السنني القرآني الكوني الشمولي التكاملي، القائم على الوعي بمنظومة **فقه سنن المقاصد الكلية للحياة**، ومنظومة **فقه السنن الكلية الناظمة للصيرورات الحضارية** لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، ومنظومة **السنن الكلية لفقه التسخير الإنجازي**، ومنظومة **فقه السنن الكلية للوقاية الحضارية الشاملة**، التي تمنح أجيال الأمة وعيا شموليا متكاملا بمحورية " **نظرية المدافعة والتجديد**" في الصيرورات الحضارية لحركة المداولة الاستخلافية المطردة في الأرض، فتوطن نفسها على مقتضيات ذلك، وتعد له عدته المطلوبة.

([1]) ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين، دار الكتب العلمية، بيروت 1991. ج66/3

([2]) الطيب برغوث، الدعوة الإسلامية والعادلة الاجتماعية، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر 1985. ص/57

الخاتمة:

الآن بعد كل هذه المقدمات عن المنظور السنني القرآني في تفسير الظاهرة الحضارية خاصة، والحركة الكونية عامة، نخلص إلى النتائج والتوصيات التالية:

1. أهمية بناء المنظور السنني الإسلامي للتغيير الحضاري، باعتباره منظورا كونيا شاملا يتسع لتفسير الظاهرة الحضارية الإنسانية، تفسيرا موضوعيا متوازنا، بعيدا عن الحرفية والتجزيئية والعنصرية أو الذاتية والتنافرية.

2. أهمية الوعي بأن المنظور السنني الإسلامي منظور إنساني عالمي كوني، يتجه إلى الإنسان من حيث هو مخلوق مكرم ومفضل ومؤتمن على مهمة الخلافة في الأرض، ومسئول عن تحقيق مقاصدها الكلية في التوحيد والخلافة والعبودية والعمران الحضاري وتهيئة المصير الأخروي للإنسان.

3. أهمية الوعي بأن المنظور السنني الإسلامي الكوني، يمثل خريطة الطريق السننية لحركة الخلافة البشرية في الأرض، بما تضمَّنه من منظومات سننية كونية كلية متكاملة، عن المقاصد الكلية للحياة البشرية، وعن النواظم السننية الكلية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، وعن السنن الكلية المتعلقة بفقه التسخير الإنجازي، وعن منظومة السنن الكلية المتعلقة بالوقاية الحضارية، وهو كل ما تحتاج إليه الحركة الحضارية فهما وإنجازا وحماية.

4. أهمية الوعي بأن تقييم حركة النهضة الإسلامية المعاصرة، على ضوء هذا المنظور السنني القرآني الكوني المتكامل، أمر في غاية الأهمية، لاكتشاف الاختلالات والنواقص الهيكلية في جهود هذه الحركة من جهة، وبناء خريطة طريق جديدة للنهضة، منسجمة مع معالم هذا المنظور السنني القرآني الكوني من جهة أخرى.

5. أهمية تصحيح الخطأ القاتل عن اعتبار الدين ينتمي إلى مجال غير مجال العلم، ومن ثم محاولة استبعاده في عملية بناء أية نظرية أو رؤية أو تصور علمي كلي لتحليل وتفسير واستشراف آفاق الظواهر الثقافية والاجتماعية والحضارية المركبة. وهو خطأ دخيل على المنظومة الثقافية الإسلامية، تسبب في اضطراب ثقافي واجتماعي كبير وعميق في المجتمعات الإسلامية المعاصرة، وكان له دور سلبي قوي جدا في مآلات حركة النهضة الإسلامية المعاصرة. وما لم يصحح هذا الخطأ القاتل فإن مسار النهضة سيظل يعاني من تنافرية واهتلاكية ذاتية منهكة بين القوى المؤمنة بهيمنة الدين على الحياة من جهة، والقوى المؤمنة بفرديته وذاتيته وروحيته فحسب من جهة أخرى، والقوى التوفيقية التلفيقية التي غالبا ما تفرض عليها الشكلية منطقها من جهة ثالثة، وهي نفس القوى التي صاحبت حركة النهضة منذ بداياتها المبكرة حتى الآن.

6. والتصحيح يتم من خلال اعتبار الدين منظومة سننية كونية أساسية ثالثة في " **الميزانية التسخيرية الكونية** " التي وضعها الله تعالى بين يدي الخلافة البشرية في الأرض، كما بينا ذلك في المنظور السنني الكوني للظاهرة الحضارية، وتقليص مساحات التباين والتنافر بين القوى الثلاثة الفاعلة في حركة النهضة، من خلال إيصالها جميعا إلى أرضية مشتركة عن ماهية الدين، وعن فاعلية دوره في حركة النهضة، حتى لا يتحول إلى ساحة خصام بين هذه القوى، كما حدث في المرحلة السابقة، حيث تحول الإسلام إلى موضع نزاع وساحة صراع شاركت فيه بقوة قوى عالمية مناهضة للإسلام، وشنت عليه حربا عالمية شاملة، وهذه المهمة الأساسية تقع مسئوليتها على عاتق البحث والاجتهاد التجديدي المعرفي للنخب الفكرية الجامعية وغيرها.

7. أهمية تدريس هذا المنظور السنني في مراحل التعليم المختلفة، لبناء الخريطة الذهنية السننية المتماسكة لدى أجيال المجتمع والأمة، وتوجيه فاعليتها الفكرية والعاطفية والروحية والاجتماعية في طريقها الصحيح.

8. أهمية استثمار هذا المنظور في البحث العلمي الجامعي والثقافي العام، لتعميق بناء هذه الخريطة الذهنية السننية المتماسكة، وتوجيه الحركة الاجتهادية المبدعة نحو خدمة النهضة الحضارية للإمة والإنسانية، والابتعاد بها عن مآزق الحرفية والتجزيئية والتنافرية المنهكة.

9. أهمية إحداث كرسي المنظور السنني للدراسات الحضارية في الجامعة، يدرَّس فيه المنظور السنني الإسلامي كرؤية نظرية كونية أولا، ثم يتم تطبيقه على تاريخ الحضارة الإسلامية والإنسانية بعد ذلك ثانيا، لتعميق الوعي بالأهمية الحيوية لهذا المنظور في حياة المجتمع والأمة والإنسانية عامة.

10. أهمية إشاعة الوعي بهذا المنظور في المجتمع كله، لاستنقاذ الفاعلية الاجتماعية للمجتمع والأمة من الخرافية والسلبية والتنافرية الاهتلاكية، وحشدها لخدمة حاجات النهضة الحضارية ومواجهة تحدياتها المتلاحقة، وفتح الطريق أمامها لتحقيق أهدافها في الإقلاع الحضاري، والمواكبة والمنافسة والريادة الحضارية.

11. أهمية تقديم هذا المنظور للعالم، باعتباره منظورا سننيا إنسانيا كونيا لا يخص المسلمين فحسب، بل هو منظور موضوعي قائم على شمولية وتكاملية وتوازنية النظرة إلى الظاهرة الحضارية التي تتحكم في الصيرورات التاريخية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض.

12. أهمية حضور هذا المنظور في الفنون المختلفة لما لها من تأثير تربوي كبير على الناس، من خلال استيعاب النصوص الفنية لمحتويات هذا المنظور السنني.

13. الأهمية القصوى لحضور هذا المنظور السنني في ثقافة النخبة الفكرية والاجتماعية عامة، والنخبة السياسية في المجتمع والأمة خاصة، باعتبارها النخب المسئولة عن التخطيط والإدارة الاستراتيجية للنهضة الحضارية للأمة والإنسانية عامة. وما لم تستوعب هذه النخب لهذا المنظور السنني الكوني، فإنها لن تستطيع أبدا إنجاز نهضة حضارية تتحرك بالبشرية على **خط الخيرية والعبودية والعالمية والإنسانية والكونية**.

14. أهمية إنشاء " **موقع المنظور السنني** " المتخصص في بناء المنظور وتطويره، ونشر الوعي به على أوسع نطاق في الأمة والعالم.

15. أهمية إنشاء " **الجامعة الشعبية للمنظور السنني** "، تتولى استقطاب الخبرات والكفاءات على مستوى المجتمع والأمة والعالم، وتمكينها من ممارسة الاجتهاد الابداعي التجديدي في هذا المجال الحيوي، وتزويد حركة النهضة الحضارية الإسلامية المعاصرة بشروط تحقيق أصالتها وفعاليتها وتكامليتها واطراديتها التاريخية.

فهرس المصادر والمراجع

1. ابن جزيء الغرناطي، كتاب التسهيل لعلوم التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت 1983.

2. ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق عبد العزيز بن باز ومحب الدين الخطيب، دار الفكر، بيروت.

3. ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار الكتب العلمية، بيروت 1993.

4. أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت 2003.

5. أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، تفسير النسفي، تحقيق مروان محمد الشعار، دار النفائس، بيروت 2005.

6. أبو السعود محمد بن محمد، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

7. أبو عبد الله محمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ط2، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم اطفيش، دار الكتب المصرية القاهرة 1964.

8. أرنولد توينبي، مختصر دراسة للتاريخ، ترجمة فؤاد محمد شبل، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1960.

9. آلبان.ج.ويدجري، التاريخ وكيف يفسرون: من كونفشيوس إلى توينبي، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

10. أليكسيس كاريل، الإنسان ذلك المجهول، ترجمة شفيق أسعد فريد، نشر مكتبة المعارف بيروت.

11. بهاء الدين الأميري، وسطية الأمة الإسلامية في ضوء الفقه الحضاري، دار الثقافة، الدوحة 1986.

12. بيير داكو، الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث، ترجمة وجيه أسعد، مؤسسة الرسالة، بيروت.

13. جمال الدين القاسمي، محاسن التأويل، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت 1418هـ.

14. حسين مؤنس، الحضارة، ط2، سلسلة عالم المعرفة، العدد 237، الكويت.

15. الراغب الاصفهاني، تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت 1983.

16. رشيد رضا، تفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1990.

17. روبرت م. أغروس، وجورج ن. ستانسيو، ترجمة كمال خلايلي، العلم في منظوره الجديد، سلسلة كتاب عالم المعرفة عدد 134.

18. سيد قطب، خصائص التصور الإسلامي، ط3، الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية 1983.

19. ــ، في ظلال القرآن، ط15، دار الشروق، القاهرة 1988.

20. شهاب الدين الألوسي، روح المعاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

21. شهاب الدين القرافي، الفروق، عالم الكتب، بيروت (نسخة المكتبة الشاملة).

22. ــ، الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام، اعتنى به عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، بيروت 1995.

23. الطيب برغوث، الدعوة الإسلامية والعادلة الاجتماعية، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر 1985.
24. مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية على ضوء نظرية المدافعة والتجديد، طبعة دار قرطبة، الجزائر 2004.
25. ـــ، سلطة المنهج في الحركة النبوية، دار النعمان، الجزائر 2012.
26. ـــ، الفعالية الحضارية والثقافة السننية، طبعة دار قرطبة، الجزائر 2004.
27. ـــ، المنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها في مرحلة بناء الدولة والمجتمع، مخطوطة بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر.
28. ـــ، مقدمة في الوعي الاستخلافي الأعلى، دار الشاطبية، الجزائر 2012.
29. عبد الحميد ابن باديس، تفسير ابن باديس،علق عليه أحمد شمس الدين،دار الكتب العلمية، بيروت 1995.
30. عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، دار صادر، بيروت 2000.
31. عبد الحليم بن تيمية، مجموع الفتاوى، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت 2000
32. عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني، إبتلاء الإرادة، دار القلم، دمشق 1995.
33. عبد المجيد النجار، سلسلة الشهود الحضاري للأمة الإسلامية، الأجزاء الثلاثة، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1999.
34. عدنان محمد أمامة، التجديد في الفكر الإسلامي، دار ابن الجوزي، دمشق.
35. عمر سليمان الأشقر، الجنة والنار، ط7، دار النفائس، الأردن 1998.
36. عماد الدين خليل، التفسير الإسلامي للتاريخ، ط5، دار العلم للملايين، بيروت 1991.
37. ـــ، مدخل إلى التاريخ الإسلامي، المركز الثقافي العربي، المغرب 2005.
38. فرج الله عبد الباري، العقيدة الدينية نشأتها وتطورها، دار الآفاق العربية، القاهرة 2006.
39. الفخر الرازي، التفسير الكبير، دار الكتب العلمية، بيروت 2000.
40. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الشعب، القاهرة.
41. عبد الوهاب المسيري، الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، دار الفكر المعاصر، بيروت 2007.
42. عبد العزيز برغوث، من أساسيات المنهج الحضاري عند مالك بن نبي، كتاب النبراس عدد3، المغرب 2006.
43. ـــ، المدخل إلى مشروع الفكر الحضاري التربوي، كوالالمبور، ماليزيا 1999.
44. فاطمة محمد عبد العليم، أثر الدين في النظم القانونية، دكتوراة مخطوطة، جامعة القاهرة 2001.
45. مادلين غراويتز، مناهج العلوم الاجتماعية، الكتاب الثاني، ترجمة سام عمار، المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف، دمشق 1993.
46. محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر 1984.
47. مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم 7 دار إحياء الكتب العربية – عيسى البابي الحلبي وشركاه 1374 هـ.
48. مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه، ط2، دار الفكر، دمشق 1988
49. ـــ، الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط4، دار الفكر، دمشق 1987.
50. ـــ، شروط النهضة، ط4، دار الفكر، دمشق 1987.

51.ـ، ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق 1986.
52.ـ، وجهة العالم الإسلامي، ط5، دار الفكر، دمشق 1986.
53.محمد إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام، ترجمة محمد يوسف عدس، دار الكتاب اللبناني 2011.
54.محمد بن علي الشوكاني، فتح القدير، دار الفكر، بيروت.
55.محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان، دار الفكر، بيروت 1995.
56.محمد مصطفى حلمي، الحياة الروحية في الإسلام، دار الكتاب المصري، القاهرة 2011
57.محمد صديق خان القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن،، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت 1992.
58. محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر 1984.
59.محمد عبد الجبار، المجتمع، بحوث في المذهب الاجتماعي القرآني، ط2، دار الأضواء، بيروت 1987.
60.محمد ناصر الدين الألباني، السلسلة الصحيحة، دار المعارف – الرياض، د.ت.
61.ـ، صحيح سنن أبي داود، مكتب التربية العربي لدول الخليج، 1409هـ.
62.ـ، صحيح الجامع، ط3، المكتب الإسلامي، بيروت 1408.
63.محمد يتيم، في نظرية الإصلاح الثقافي، طوب بريس، الرباط – المغرب 2010.
64.محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، القاهرة 1997.
65.محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية – مصر 1975.
66.محمد علي الكبيسي، نشأة الفكر السياسي عند العرب، دار الفكر، دمشق 2005.
67.ميرسيا إلياده، البحث عن التاريخ والمعنى في الدين، ترجمة سعود المولى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2007.
68.نصر محمد عارف، الحضارة والثقافة والمدنية دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم، ط2، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية 1994.
69.هنري برجسون، منبعا الأخلاق والدين، ترجمة سامي الدروبي، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة 1971.
70. ولترستيس، الدين والعقل الحديث، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي، القاهرة 1998.
71.ويل ديورنت، دروس التاريخ، ترجمة علي شلش، دار الجميل، القاهرة 1999.
72.ي. هل، الحضارة العربية، ترجمة إبراهيم أحمد العدوي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة،(د.ت).
73.يوسف حامد العالم، المقاصد العامة للشريعة، ط2، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية 1994.
74.اعتمدت كثيرا على موقع: dorar.net في تخريج الأحاديث النبوية.
75.اعتمدت كثيرا في مصادر التفسير على برنامج: **المكتبة الشاملة**.
76.كما اعتمدت كذلك كثيرا على برنامج: **الجامع التاريخي لتفسير القرآن الكريم**.
77.وبرنامج: **الباحث في القرآن الكريم** لعزو الآيات.